

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي



جامعة المسيلة
كلية الآداب واللغات
قسم اللغة والأدب العربي

البعد الإيديولوجي في روايتي "رمانة" و"عرس بغل" للروائي الطاهر وطار

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر

تخصص: أدب جزائري
إشراف الأستاذة:
جميلة روباش

فرع: أدب عربي
إعداد الطالبة:
أم الخير صديقي

السنة الجامعية: 2012م / 2013م

1433هـ / 1434هـ



سُبْحَانَكَ وَأَعِزِّهِمَا

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ

وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾ سورة الفتح الآية 3.

قبل كل شيء أحمدك اللهم حمدا معترف بجليل نعمتك، وأذكرك وأشكرك ولا أكفرك، وأثني عليك كما أثنت على نفسك، وأسلم على أشرف أنبيائك وصفوتك من ذلك سيدنا وحبيبنا محمد وعلى آله وصحبه، ونسألك من فضلك نورا يعصم القلوب من الزيغ والجور من الحكم، وينور البصائر ويشرح الصدور. ((رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً

وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا)). سورة الكهف الآية 10

أتقدم بأسمى معاني الشكر والتقدير إلى الأستاذ المشرف جميلة روياش وكل من ساعدني في إنجاز هذا العمل سواء

من بعيد أو من قريب وقدم لي يد العون ولو بكلمة طيبة.

كما أتقدم بالشكر إلى كل أساتذة اللغة والأدب العربي

وهيئات جامعة المسيلة التي وفرت لنا فرصة البحث

و خاصة بالذكر عمال مكتبة "باب الجامعة".

مَقَام

مقدمة :

طالما اقترن الأدب - خاصة فن الرواية - في ذهن الكثيرين بالمتعة، إذ أنه يوفر لمستهلكه راحة نفسية، كما أنه يخرج من التوتر الذي يعيشه في حياته، إذ أنه يشعره بتعويض عن المتع التي يرغب فيها ولم ينلها، والبطولات التي حلم بها ولم يحققها، كما أنها - أي الرواية - تعبر وبكل واقعية عن إيديولوجية المجتمع، وكذا إيديولوجية الكاتب؛ فالرواية الواقعية تعد مرآة عاكسة ذات قيمة إنسانية وأخلاقية ولا يخرج عن هذا الإطار الرواية الجزائرية التي هي أيضا انعكاس لسلوك المجتمع الجزائري في مختلف فتراته الزمنية المعبرة عن واقع هو ذاته قد تغير بتغير أزمنته وأحداثه .

إذ أن أول باكورة روائية عالمية هي رواية "الحمار الذهبي" ¹ للكاتب الجزائري "لوكيوس أبوليوس" الذي عاش في عهد الدولة النوميديّة في فترة امتداد الامبراطورية الرومانية في الجزائر، وترجمها إلى اللغة العربية أبو العيد دودو كما أن الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة العربية في المرحلة الأخيرة تميزت بتطورها البارز، الذي أحدثته فئة من الكتاب كعبد الحميد بن هدوقة، واسيني الأعرج، أحلام مستغانمي، والطاهر وطار؛ هذا الأخير الذي احتل الصدارة في ممارسة الإبداعية وتقدم على كل الروائيين الجزائريين الذين يكتبون باللغة العربية، نظرا لتمتعهم بهاجس المغامرة الفنية مع الوفاء لموقفه الفكري العام، الذي دعم رؤيته الشاملة لقضايا الكون والإنسان والحياة، لتندرج أعماله في سياقاتها المختلفة لتؤرخ لكل التحولات والصيرورات الحاصلة في المجتمع الجزائري، وتعبر عنها بكل واقعية وهذا هو سر خلودها، إذ أنها عكست تحولات وتطورات المجتمع الجزائري منذ الثورة المسلحة إلى الاستقلال، مع التركيز على الألوان المحلية للجوانب الاجتماعية والسياسية والثقافية. لتكون روايات "الطاهر وطار" الفضل في إغناء خريطتنا

¹ - لوكيوس أبوليوس، الحمار الذهبي، ترجمة : أبو العيد دودو، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2004 .

الأدبية بمناهج روائية، كانت في أغلب الأوقات نسخة طبق الأصل للإنسان الجزائري والعربي، الذي طالما عانى من ويلات الحرب وجبروت الاستعمار، في الوقت نفسه تعكس صورته وهو يبحث عن أقرب منفذ يوصله إلى العوامل الحضارية المختلفة، انطلاقاً من الواقع الحقيقي، والهم المعاش، وذلك عن طريق ربط علاقاتها بالسياسة والإيديولوجيا والفن.

وتعد روايتي "رمانة" و "عرس بغل" من أهم أعماله الشاهدة على تقلبات الوضع الراهن في الجزائر، فهي قراءة للواقع الذي انفتح عليه "الطاهر وطار" بتحولاته المتسارعة مسجلاً شجاعة في طرحها لأنه انطلق من رؤية تعبيرية متحررة لا يردعها الواقع السياسي والاستعماري، كما أنها لا تخلو من طرح جذري يعبر عن الواقع الراهن بلغة فنية جديدة، تحوي رموزاً وإشارات ذات أبعاد دلالية، ارتأينا الكشف عنها في دراستنا .

وكانت الإشكالية المعتمدة في صلب البحث: ما هي الإيديولوجيا وما علاقتها بالأدب؟ وكيف تظهر البعد الإيديولوجي في روايتي "رمانة" و "عرس بغل" للروائي "الطاهر وطار" ؟

وقد تم اختيار الروائيتين من بين رواياته المتعددة لأنهما الأكثر حيوية، وذات آفاق سياسية واسعة وهامة، وتعد البؤرة الأساسية لوجهة نظر "الطاهر وطار" في الفترة الراهنة للواقع الجزائري؛ وهي قناعتنا الشخصية في قراءتنا للروائيتين.

ولكي تكون دراستنا خاضعة لمنهجية علمية، فقد اتبعنا المنهج الوصفي التحليلي؛ وقد قسمنا البحث إلى: مقدمة، ومدخل بعنوان "الإيديولوجيا من النشأة إلى التجسيد"، حيث حاولنا أن نلم ببعض الجوانب، كنشأة المفهوم وتطوره، وعلاقة الأدب بالإيديولوجيا من خلال صلة الأفكار بالواقع والفن، ومنه إلى علاقة الرواية بالإيديولوجيا، وفصلين تطبيقيين، الأول عنوانه البعد الإيديولوجي في رواية "رمانة"

تناولنا فيه البعد السياسي، الجنسي، الاجتماعي والاقتصادي، الثقافي، العاطفي والنفسي.

والثاني بعنوان البعد الإيديولوجي في رواية "عرس بغل"، تناولنا فيه كذلك البعد السياسي، الديني، الاجتماعي والاقتصادي، التراثي، التاريخي، الثقافي، والنفسي ثم اختتمنا البحث بخاتمة فيها حوصلة للنتائج التي توصلنا إليها، وفي الأخير قدمنا قائمة للمصادر والمراجع التي اعتمدتها، كما كان لنا ملخص لهذا البحث.

وكان المصدران الأساسيان اللذان استندنا عليهما لإنجاز هذا العمل هما روايتي "رمانة" و "عرس بغل" للطاهر وطار، كما كانت هناك دراسات سابقة اشارت إلى هذه الدراسة منها البعد الإيديولوجي في الرواية العربية، الثالوث المحرم لطاهر وطار...

أما من جهة المادة العلمية فقد واجهتنا صعوبات في جمعها، وطريقة تنظيمها وإعداد خطة تحويلها لتسهيل فهمها، كما واجهتنا صعوبات قلة المراجع، وعدم التنسيق بين المادة العلمية، لكن بمشيئة الخالق عز وجل، ثم بعزمي تخطينا هذه الصعوبات، وتم تجاوزها بكل عزم، كما لا ننسى تشجيع الأستاذة المشرفة جزاها الله خيرا.

في الأخير نتمنى أن أكون قد وفقنا في عملي هذا، وساهمنا في وضع لبنة جديدة لمكتبتنا، ولو بالشيء القليل؛ وأخص بالشكر والعرفان للأستاذة المشرفة "روباش جميلة" التي علمتني المبادئ الصحيحة للعمل الأكاديمي، ولم تبخل عليا بنصائحها القيمة التي وجهتنا للوجهة الصحيحة إلى آخر كلمة في البحث؛ ورحم الله "الطاهر وطار" الذي أتحف المكتبة الجزائرية بتحف ونوادر.

والحمد لله رب العالمين .

مدخل

الإيديولوجيا من النشأة إلى التجسيـد

- نشأة مفهوم الإيديولوجيا وتطوره
- علاقة الأدب بالإيديولوجيا
- علاقة الرواية بالإيديولوجيا

تعد الرواية الجنس الأدبي القادر على احتواء بقية الأجناس الأدبية، والميدان الرحب الذي تجتمع فيه مظاهر الحياة اليومية، فتصور أحاسيس الإنسان وأفكاره وصراعه مع واقعه ومحيطه في قالب سردي عجيب، حتى إن واقع الإبداع يكاد يجزم أن الرواية هي الجنس الذي تربع على عرش الفن بامتياز، ما أفضى إلى اهتمام النقاد والدارسين بهذا الجنس اهتماما مميزا، فخصصوا دراسات عنيت في بدايتها بجانب الشكل والمضمون على حد سواء، لكن بمرور الزمن ظهرت أقطاب إنجازات للاهتمام أكثر بالمضمون، خاصة فيما عرف بميدان سوسيولوجيا الرواية والذي يهتم بالبحث في العلاقة بين الأدب " الرواية " والمجتمع ، أي كل ما تحمله الرواية من هموم وهواجس فكرية واهتمامات إيديولوجية، هذه الأخيرة التي ظلت ولفترة طويلة متأصلة في النص الروائي بشكل بارز، وقبل الحديث عن علاقة الإيديولوجيا بالأدب والرواية، لا بأس أن نخرج على نشأة وتطور هذا المفهوم (الإيديولوجيا).

يعتبر المصطلح الإيديولوجي مفهوم يحتل محمولات متعددة من أكثر المصطلحات التي عرفت تطورا كبيرا وانتشارا واسعا واستعمالا متباينا في مختلف المجالات الفكرية والفلسفية والسياسية والأدبية، وارتبط بجميع تيارات الفكر العالمية خاصة في العصر الحديث الذي يشهد قطيعة معرفية وانقلابا لموازين القوى نتيجة هيمنة الروح المادية، مما جعل من العسير تحديد وضبط المفهوم في صيغة ثابتة حيث يخضع التعريف به لعدد من الموجات الفكرية التي غيرت مسار انشغاله وطمست حدود مجاله التأسيسي.

وكان أول استخدام لمصطلح " الإيديولوجيا " مع " ديستوت دوتراسي " في كتابه " مشروع عناصر الإيديولوجيا " سنة 1801م، " وكان هدفه الإتيان بما اعتبره - علما للأفكار - ، أي أن موضوع الإيديولوجيا الأول هو دراسة الأفكار وما تحمله من معان والقوانين التي تحكم علاقاتها بعضها ببعض ¹ ومدى تأثير ذلك على السلوك البشري وصيانتها في قالب علمي عقلاني تجريبي.

¹ - إبراهيم عباس، الرواية المغاربية " تشكل النص السردي في ضوء البعد الإيديولوجي " ، دار الرائد للكتاب، ط 1، الجزائر، 2005، ص 20 .

يقول دوتراسي: "إن كلمة إيديولوجيا تستبعد كل ما هو شكّي ومجهول، ولا تستدعي في الذهن أي فكرة خاطئة وغامضة" ¹، هذا القول يشير إلى تركيز الإيديولوجيا على ما يعيه الإنسان دون الجانب السيكولوجي ومجاهله، ومدى انعكاسها على الواقع المعيشي، فهي "تلك الأفكار والتمثيلات التي ينتجها الوعي، والتي تجد منابعها في الظروف المادية والمصالح المتضاربة داخلها، فهي تعبير وشكل وانعكاس للواقع" ² فطبيعة الإيديولوجيا تجعل منها شكلا من مظاهر الجماعية التي تتحدد من خلالها مجموعة اجتماعية، والصور والرموز والممارسات، وهذه السمات مشتركة بين أفراد المجموعة أو الطبقة الاجتماعية ³.

إن اهتمام دوتراسي بهذا المبحث في التحليل العلمي للإيديولوجيا يرمي إلى تخليص مصطلح الإيديولوجيا من كل أنواع الخيال والميتافيزيقيا، ليسهل بعد ذلك تبنيها وتداولها، هذا ما جعل مصطلح الإيديولوجيا ينتشر انتشارا واسعا بين المفكرين والفلاسفة، خاصة في الأبحاث السوسيومعرفية، لينتقل بعد ذلك إلى جانب السياسة ومنه إلى مجال الأدب، وغير بعيد عن هذا التوجه المعرفي نجد توجهها آخر يتمثل في المفهوم الفلسفي للإيديولوجيا الذي يختلف كثيرا عن مفهوم "دوتراسي"، فقد ورد في الموسوعة الفلسفية ما معناه أن: "الإيديولوجيا نسق من الآراء والأفكار السياسية والقانونية والأخلاقية والجمالية والدينية والفلسفية..." ⁴ هذا ما يشير إلى أن الإيديولوجيا منظومة أو نسق فكري عام مشكل من أنساق جزئية يحملها الوعي الإنساني ويعبر عنها في المحيط الاجتماعي، وقد تطور مفهوم الإيديولوجيا تطورا واضحا مع "كارل ماركس Karl Marx" حيث اتضحت طبيعته ووظائفه، وتشكلت رؤيته له عبر مراحل، فأعتبره في بداية الأمر "خدعة" تتستر بها طبقة اجتماعية لتسيطر على الطبقات الأخرى، لتصبح فيما بعد حالة عن "الوعي الزائف" للحقائق إذ يقول: "الإيديولوجيا عملية ذهنية يقوم بها المفكر وهو واع، إلا أن وعيه زائف لأنه يجهل

¹ - عمر عيلان، الإيديولوجيا وبنية الخطاب الروائي، منشورات جامعية، ط 1، الجزائر، 2001، ص 11.

² - عمار بلحسن، الأدب والإيديولوجيا، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 80.

³ - ينظر عمر عيلان، الإيديولوجيا وبنية الخطاب الروائي، ص 16.

⁴ - روزنتال م. و. ويودين. ي، الموسوعة الفلسفية، ترجمة: سمير كرم، دار الطليعة، ط 1، بيروت، 1974، ص 68.

القوى الحقيقية التي تحركه " ¹ وبهذا اتسمت رؤيته لهذا المفهوم بالموضوعية فاتخذت موقفاً وسطاً، فلا هو من أنصار شيوع هذا المصطلح أو من مفكريه، لتنتهي نظريته في الأخير إلى عده نظرة للعالم من خلال الحركية التاريخية للكون ومحاولة فهمها، وبالتالي وعيها من طرف الناس ومباشرة توظيفها. ²

لينتقل هذا المفهوم إلى ميدان آخر هو الاقتصاد، فأصبحت الإيديولوجيا وليدة "مجموعة من المصالح الاقتصادية الخاصة بطبقة معينة بغض النظر عن كونها حاكمة أم لا، فما هي إلا تعبير عن المتغيرات التي تطرأ على الظروف الاقتصادية للإنتاج" ³.

إلا أنه يوجد من قابل هذه الرؤية بالرفض والاستنكار ، وعلى رأسهم " نابليون بوناپرت Napoléon Bonaparte" الذي يعد أول من أعطى لكلمة الإيديولوجيا معنى تحقيرياً وذلك حينما اصطدمت مصالحه وأفكاره التوسعية بجماعة الإيديولوجيين الداعية إلى القيام بإصلاحات جذرية في المؤسسة الاجتماعية ⁴ " حيث قام بإدانة هؤلاء المثقفين وشجب أفكارهم واصفا إياها بالتجريد والتضمين " ⁵.

هذه السجلات حول الإيديولوجيا أسهمت في تطوير مفاهيمها، حيث تحولت من نظام أفكار مجردة إلى وظيفة نقدية تهدف إلى التغيير والتطوير، واتخذت شكلها عن العقلانيين ، وشقت طريقها فيما بعد إلى السياسة والسياسيين ⁶ . فمع قيام الثورة الفرنسية وظهور البورجوازية كقطب سياسي، نشأت الإيديولوجيا البرجوازية، وقد كانت الإنسانية يومها خارجة من العبودية الاجتماعية و الإيديولوجيا اللتين فرضهما الاقتصاد الإقطاعي وسياسته وثقافته .

فارتبط مفهوم الإيديولوجيا أكثر بطبقة أو تحالف طبقات " فالإيديولوجيا هي الجزء المركزي في تكوين نمطي، هذا الجزء من التكوين خاص بطبقة أو تحالف طبقات يحد

¹ - عبد الله العروي ، مفهوم الإيديولوجيا ، المركز الثقافي العربي ، ط7 ، المغرب ، 2003 ، ص 34 .

² - ينظر إبراهيم عباس ، الرواية المغاربية ، ص 27 .

³ - ينظر المرجع نفسه، ص 28 .

⁴ - ينظر عمر عيلان ، الإيديولوجيا وبنية الخطاب الروائي ، ص 12.

⁵ - إبراهيم عباس ، الرواية المغاربية ، ص 21 .

⁶ - ينظر المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

تجسيده الواقعي في حزب أو عدة أحزاب وتمثل الطبقة أو التحالف ، فعندما نقول الإيديولوجيا البورجوازية نقصد بذلك النمط الفكري الخاص بالبرجوازية والمميز الملازم لها كطبقة بصفة دائمة ¹ وتبقى هذه الدراسات كلها مساهمات فاعلة في عملية إثراء المفهوم، وقد تدعمت أكثر بظهور فلسفة عدت حلقة هامة في تطويره هي فلسفة الأنوار، حيث مهدت " لظهور مفهوم الإيديولوجيا، بيد أن مشروع علم الأفكار لا يشكل نظرية " الإيديولوجية " لم يكشف المشروع إلا عن جانب واحد من جوانب المشكلة ويتعلق الأمر بتأثير أفكار موروثية على الفكر الفردي ² لتتحول النظرية الخاصة بالإيديولوجيا مع المنظّر والسياسي الإيطالي "أنطونيو غرامشي Grahanci " والفيلسوف " لويس ألتوسير Louis Altossir" من وضع الشتات الفكري النظري إلى وضع حاول المنظران الماركسيان بناء نظرية علمية لها ولقاعدها المادية ³ يقول غرامشي: " إن البناء العلوي الفكري لم يكن مجردا يأتي من نفسه بامتداد لطبقة وإنما يأتي من خلال جماعة من أعضاء الطبقة المرتبطة بها عضويا ⁴ وهو بهذا يؤكد على الدور الفعال لنخبة داخل الطبقة، كما يرى ألتوسير أن الإيديولوجيا " هي الإسمنت الاجتماعي الذي يتغلغل في بنية المجتمع فيقيه السقوط ⁵ وبهذا المعنى تصبح الإيديولوجيا رؤية أو تصورا خاصا للعالم يظهر ضمنا في جميع مظاهر الحياة الفردية والجماعية، والعامل الذي يعكس كل ممارسات الإنسانية على اختلافها .

وبما أن للإيديولوجيا علاقة مباشرة بالمجتمع ، فإن لها مفهوما سوسيولوجيا باعتبار أن النظام الفكري لمجتمع ما يشكل نسقا اجتماعيا ممثلا على شكل أفعال وممارسات اجتماعية، فالمدلول الاجتماعي للإيديولوجيا يتمفصل من خلال البنيات الفكرية للمجتمع، بحيث أنها في المقام الأول ظاهرة اجتماعية توجه الأنظمة السياسية والقانونية والأدبية فالوعي الجمعي بصفة عامة يفرز بدوره رؤية للعالم تماثل طموحات

¹ -صلاح مختار، العلاقة بين الإيديولوجيا و الاستراتيجية ، مجلة دراسات عربية ، جوان 1973 ، ع 8 ، ص 04 .

² - عبد الله العروي ، مفهوم الإيديولوجيا ، ص 24 .

³ - عمار بلحسن، الأدب و الإيديولوجيا ، ص 81 .

⁴ - إبراهيم عباس، الرواية المغاربية ، ص 31 .

⁵ - المرجع نفسه، ص 29.

وتطلعات فئة في مجتمع من المجتمعات ، لذا نجد معظم الباحثين والمهتمين بـ " علم اجتماع المعرفة " ¹ " يقرّون أن الإيديولوجيا تابعة للعامل الاجتماعي... " ²

هذا حال الإيديولوجيا عند الغرب، أما حالها في الفكر العربي فإن أول ما يلفت انتباهنا هو أن هذه الكلمة دخيلة على اللغة العربية، وهذا ما يؤكد كل الدارسين. " وواضح أن كلمة إيديولوجيا دخيلة على اللغة العربية " ³ على قول " إبراهيم عباس " وفي السياق نفسه نجد " عبد الله العروي " يقول : " لذا أقترح أن نعربها تماما وندخلها في قالب من قوالب الصرف العربي، وسأعطي المثل فيما يلي: الكلمة أدلوجة على وزن أفعولة " ⁴ هذا عن الاجتماعات الخاصة بمحاولة تعريب المصطلح.

أما فيما يتعلق بالمعنى ، فإن له حضورا عميقا في تاريخنا الفكري، فـ"الفارابي" استعمل كلمة " الملة " ويعني بها في السياق الإيديولوجيا " مجموعة الأفكار أو المعتقدات التي تلتف حولها فئة معينة من الناس يناصرونها ويلتزمون بها " ⁵ ، ويقر "زكي نجيب محمود " بتوظيفه اللفظة البديلة للإيديولوجيا وهي المذهبية ، وهي اللفظة التي سبقه إليها " أبو حامد الغزالي " في حديثه مثلا عن صراعات السنة والشيعة.

في حين أن ظهور لفظة الإيديولوجيا صراحة في الفكر العربي لم يكن دفعة واحدة فالإيديولوجيا كانت مرادفة للفلسفة في بدايتها، لكن مع تطور الحركة الفكرية تحول المصطلح ليعبر عن تنوع الهندسة الفكرية، السياسية، والاجتماعية.

وهي كما يرى " سعد الدين ابراهيم " تحدد ما يفسر الواقع الراهن والمعيش، وتبنى على أساسه الصياغة المستقبلية التي ينبغي أن يكون عليها الواقع، إلا أن هذا الاختلاف في تحديد المفهوم لم تمنع المصطلح من أن يأخذ مكانته في القاموس الفكري العربي، محاولة من المفكرين لتغيير ظروف الواقع المزرية نحو واقع أفضل ⁶

¹ - علم اجتماع المعرفة: هو العلم الذي يدرس المنتجات الذهنية أو الثقافية كالإيديولوجيات والسياسة والعلم والمذاهب الأخلاقية والقانونية والأدبية كما يعد كارل مانهايم من أبرز المنظرين في ميدان علم اجتماع المعرفة .

² - عبد اللطيف عبادة، اجتماعية المعرفة الفلسفية، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط1، الجزائر، 1984، ص 106 - 107.

³ - إبراهيم عباس، الرواية المغاربية ، ص 34 .

⁴ - عبد الله العروي، مفهوم الإيديولوجيا ، ص 09 .

⁵ - إبراهيم عباس، الرواية المغاربية ، ص 35 .

⁶ - ينظر المرجع نفسه ، ص 38 .

وبهذا تحمل الإيديولوجيا معنى الانقلابية، يقول "نديم البيطار": " كل إيديولوجية انقلابية هي إيديولوجية مثالية، لأنها لا تتسجم مع الواقع تماما وتحاول أن تصححه"¹ فالإيديولوجيا تظهر عندما يشعر الفرد في مجتمعه بضيق الأفق، وسوء الظروف وتكون مهمتها إشباع حاجيات شرائح قلقة في المجتمع.

أما "عبد الله العروي" فيذهب إلى القول بأنه: " ليست الإيديولوجية الفكرة المجردة أو العقيدة وإنما هي الفكر غير المطابق للواقع... إن مفهوم الإيديولوجية يقتضي وصفا اجتماعيا وتاريخيا خاصا يعيش أثناءه الفرد حالة تحيله عاجزا عن إدراك تعبير صادق ومستقيم عن واقع حياته العامة بما فيها من علاقات سياسية واجتماعية، ومن ذكريات جماعية ومن تطلعات إلى المستقبل "² حيث ربط العروي الأدلوجة العامة بظرف تاريخي معين، فالإيديولوجيا حسب رأيه تتحدد بالزمن التاريخي التي تظهر فيه.

ويبقى تشكل الطبقات الفكرية عند العرب من أبرز العوامل التي أسهمت في بلورة مفهوم الإيديولوجيا في الفكر العربي، فقد واكب هذه الطبقات صراعات عديدة، وفي إطار هذا الصراع ظهر ما يسمى بالفكر العربي المعاصر والفكر السلفي ليتعداه إلى الثقافي والأدبي.³

كان هاجس العرب في البداية هو تبرير سوء واقع المجتمع العربي وتخلفه، حيث تأكد لهم أن تخطي الركود والأوضاع المزرية التي يعيشها العالم العربي لن يكون إلا بتجاوز الأوهام والأخطاء والاستفادة من تقدم العالم الغربي، وذلك بإحداث نقلة كيفية على مستوى الثورة الإيديولوجية كأمر ضروري لتحقيق واقع أفضل واستطاع الفكر العربي وبغض النظر عن كل ما واجهه من صعوبات أن يبلور لنفسه إيديولوجية متميزة، ولعل أبرز ما ميز هذه الإيديولوجيا هو الجمع بين التراث العربي القابل للتكيف مع روح العصر وبين ما هو جوهرى من ثقافة الآخر.⁴

¹ - عبد الله العروي، مفهوم الإيديولوجيا ، ص 121 .

² - عبد الله العروي ، الإيديولوجيا العربية والمعاصرة ، المركز الثقافي العربي، ط 2 ، المغرب 1999 ، ص 15 - 16 .

³ - ينظر إبراهيم عباس، الرواية المغاربية، ص 39 .

⁴ - ينظر المرجع نفسه، ص 41 - 42 .

هذا فيما يخص الإيديولوجيا كممارسة فكرية في إطارها العام ، أما الحديث عن ممارسة هذا المفهوم في الجانب الإبداعي فالأمر مختلف ، ففي بداية تاريخ الأبحاث الأدبية ظهرت نظرية "الخلق" كمفهوم يثبت أن الأدب خلق وإبداع، والنص الأدبي لا يتحدد إلا بخالقه، فعملية الإبداع الأدبي تكون على أساس الموهبة والعبقرية ، لكن مع مرور الوقت وبظهور المادية تغيرت هذه النظرة لتتراجع كلمة "خلق"، ويتقدم مفهوم آخر يهدف إلى تحديد الأدب بدقة علمية، إنه مفهوم الإنتاج. وبهذا المفهوم يصبح الأدب إنتاجا إيديولوجيا، لن يظهر للوجود إلا بالعلاقة مع اللغة، مع التاريخ، ومع التشكيلات الاجتماعية، وبالتالي مع الإيديولوجيا¹. فعلاقة الأدب بالإيديولوجيا تظهر في كونه خطابا أنتج تحت تأثيرها وفي كونه هو الآخر ينتج آثار إيديولوجية، فالعملية الإبداعية إذن تخضع لعوامل تتحكم فيها تجربة الأديب الحياتية، ومجمل الصراعات الفكرية القائمة بمجتمعه، والمبدع في هذه الشروط يقوم بإعادة تجربته ووعيه بالواقع من خلال إيديولوجيته في شكل متميز يسمى العمل الأدبي².

فنجذ " محمد مندور يؤكد على أهمية الأدب من حيث أنه وظيفة اجتماعية فلم يعد من الممكن أن يظل الأدب والفن مجرد صدى للحياة بل يجب أن يصبحا قائدين لها فقد انقضى الزمن الذي كان ينظر إلى الأدباء والفنانين على أنهم طائفة من الفرديين الأبقين الشذاذ، أو المنطوين على أنفسهم، أو المجترين لأحلامهم وآمالهم الخاصة أو الباكين لضياهم وخيبة آمالهم في الحياة، وحن الوقت لكي يلتزم الأدباء والفنانون بمعارك شعوبهم وقضايا عصرهم، ومصير الإنسانية³ فواضح من هذا القول الصلة الحميمة التي أصبحت تربط الأدب والمجتمع وضرورة التعبير عنه.

إذن العلاقة بين الأدب والإيديولوجيا هي علاقة وطيدة " علاقة تبادلية أي في التأثير والتأثر⁴ ومع ذلك فمن الضروري التأكيد بأن لكل منهما انتقالية نسبية، فكل منهما يتطور وفق نسق مختلف عن الآخر، وكل منهما يتفاعل مع العلاقات

¹ - ينظر عمار بلحسن، الأدب والإيديولوجيا ، ص 91 - 92 .

² - ينظر إبراهيم عباس، الرواية المغاربية ، ص 54 .

³ - إبراهيم عباس ، الرواية المغاربية " الجدلية التاريخية والواقع المعاش ، دراسة في بنية المضمون " ، منشورات المؤسسة الوطنية للاتصال النشر والإشهار ، الجزائر ، 2002 ، ص 5 .

⁴ - إبراهيم عباس، الرواية المغاربية " تشكل النص السردي في ضوء البعد الإيديولوجي ، ص 56 .

الاجتماعية بطريقة خاصة، فالإيديولوجيا نظام من المفاهيم والتصورات الاجتماعية فهي محددة ومتعينة، في حين أن الأدب والفن عامة يتمرد دوماً على كل الحدود والمفاهيم، وعليه فالعلاقة بين الأدب والإيديولوجيا ليست علاقة بسيطة، بل مركبة ومتداخلة وبالغة التعقيد¹.

ولعل أبرز الأنواع الأدبية التي تجلت فيها الإيديولوجيا بشكل كبير هو جنس الرواية وعرفت العلاقة بين الرواية والإيديولوجيا جدلاً نقدياً كبيراً امتدت جذوره الأولى إلى نشأة النص الروائي وعلاقته بالواقع الاجتماعي، وبصورة التاريخ كخطاب أدبي جمالي حامل لصور ومفاهيم من التاريخ، الأمر الذي جعل التنظير للرواية كنمط إيديولوجي ضمن حقل معرفي (ابستمولوجي) يشكل نسقاً شاملاً، وتستوعب أيضاً سوسيولوجيا النص باعتباره بنية تامة تتجاوز فيها الإيديولوجيات "المصورة" عبر التشكيل اللغوي، لتأخذ طابعاً صدامياً يؤول إلى بناء دالة تمثل عمق النص.

يرى التحليل السوسيولوجي أن الرواية ارتبطت في نشأتها بظهور المجتمع البرجوازي وانتصار نمط الإنتاج الرأسمالي، حيث يخوض الفرد صراعاً جديداً ضد قوى مجردة كالعلاقات الاجتماعية الرأسمالية، والقيم الاستهلاكية أدى إلى افتقاد الوحدة العضوية بين البشر وتحويلهم إلى فئات يقوم كل منها بعمل محدد، وأصبح الواقع المعيشي متدهوراً يصعب معه تطور الطابع الروحي الإنساني، وأدى التقسيم الرأسمالي للعمل إلى انقسام "الشخصية الإنسانية إلى عالم داخلي وعالم خارجي، فهو يدمر تلك الوحدة البدائية للرابطة العشرية باعتبارها مضمونا وشكلاً لوحدة الفرد والمجتمع"² وتحولت روح الإنسان من التعبير الشعري الملحمي إلى نثر يصور الشخصيات الإنسانية في صراعها وكفاحها، فكانت الرواية ملحمة برجوازية حديثة، وعرفها الناقد "جورج لوكاتش" بأنها: "النوع الأدبي الذي يستطيع أكثر من غيره الارتباط بالحياة البرجوازية"³ والرواية بموجب ظروف نشأتها تمكنت من رصد التناقضات الاجتماعية والكشف عن خبايا الأزمات الكبرى التي عرفتها أوروبا إثر حركات تطور المجتمعات الصناعية

¹ - شكري عزيز الماضي، محاضرات في نظرية الأدب، دار البحث للطباعة والنشر، ط1، 1984، ص 98.

² - عمار بلحسن، الأدب والإيديولوجيا، ص 100.

³ - سيد البحراوي، علم اجتماع الأدب، دار نوبار للطباعة، ط1، القاهرة، 1992، ص 14.

وقد كشف النقاد وخاصة "الماركسيون" عن جدلية تطور العلاقة بين الرواية والواقع في عكس الإيديولوجية السائدة، ودعا "لوكاتش" إلى ضرورة التفريق بين " الإيديولوجية الكاتب بوصفه إنسانا، وإيديولوجية كتاباته التي لا تخضع إلا لمنطق الكتابة ونسيج الدلالات"¹

كما قادت الدراسات التطبيقية لمؤلفات روائيين عالميين كبلزاك² وتولستوي³ وديستوفسكي⁴ إلى تبلور اتجاهات نقدية حول نظرية الرواية، وأدى اهتمام علم الاجتماع بها كفن إلى ظهور علم اجتماع الأدب الذي درس " الأدب كظاهرة اجتماعية"⁵ واتجه عبر مروره بمراحل متعددة إلى بلورة نظرية الرواية كفن مستقل له قوانينه ومميزاته، وقد ميز الناقد العربي " حميد لحميداني "⁶ ثلاثة أشكال في صيرورة ارتباط هذا المنهج بنقد الرواية :

- أ (**النقد الجدلي في صورته الأولى:** وارتبط بالمادية التاريخية، حيث الرواية شكل من أشكال البنية الفكرية للمجتمع، وتدخل الرواية لتصوير الصراع حول المصطلح المادية بين طبقات المجتمع.
- ب (**البنية التكوينية:** وتحاول إنجاز علاقة بين إيديولوجيا الكاتب والمجتمع والنص الأدبي والروائي، حيث الكاتب نتاج ظروف سوسيو تاريخية، ومن أعلامها لوكاتش وغولدمان اللذين بلورا تباعا فكرة رؤية العالم .

¹ -الطبيب بودريال والسعيد جاب الله، الواقعية في الأدب ، مجلة العلوم الإنسانية ، جامعة محمد خيضر ، بسكرة ، عدد 07 ، 2005 ، ص 55 .

² - أونوريه دي بلزاك (1799 - 1850) : أديب رومانسي فرنسي ومؤلف الكوميديا البشرية ، بدأ كتابتها سنة 1829 استغرقت كتاباتها ثلاثة عشر عاما .

³ - ليون تولستوي (1828-1910): أديب روسي وأشهر أعماله الحرب والسلام بين (1865 - 1869) وأنا كارتين 1890 .

⁴ - فيودور ميخائيلوفيتش دوستوفسكي (1821 - 1881) : أديب روسي أشهر أعماله الإخوة كرامازوف بين (1879 . 1880) .

⁵ - سيد البحراري ، علم اجتماع الأدب ، ص 01 .

⁶ - حميد لحميداني ، روائي وناقد مغربي من مؤلفاته رواية دهايز الحس القديم 1970 .

ج (سوسيولوجيا النص الروائي: يعتبر ميخائيل باختين¹ أقرب سوسيولوجي الأدب إلى بناء سوسيولوجيا الأدب إلى سوسيولوجيا النص الروائي، وقد بنى آراءه حول الرواية بالتحليل العميق لعلاقة اللغة بالواقع الاجتماعي والاقتصادي. كحوصلة نقول أن الأدب ليس بعيدا عن التأثير بالتيارات المحيطة به اجتماعيا سياسيا، وفكريا دون أن يقع في ضلالة محاكاة الواقع بشكل أعمى، إذ يبقى إنتاجا من إنسان مبدع يحاول أن يتفاعل مع الظروف التي تحيط به ويعبر عنها، لكن هذا لا يعني عدم الاهتمام بالسّمات العامة التي تميز العمل الأدبي عن غيره، واستنادا بالأساس إلى الإيديولوجيا.

ومن هنا يتضح لنا بعد العرض كيف أن الإيديولوجيا ظهرت مجرد مصطلح يهتم بالأفكار، وشيئا فشيئا توسع هذا المفهوم ليشمل ميادين متعددة بما في ذلك الأدب. كما ارتبطت الرواية الجزائرية بالخطاب الإيديولوجي ارتباطا وثيقا، مثلها في ذلك الرواية العربية التي ساهمت التطورات الاجتماعية والسياسية والثقافية في المجتمع العربي انطلاقا من " رؤية إيديولوجية صراعية تبحث في نزعة الواقع المستحدث الذي هو واقع مليء بالتناقضات، فظهرت كتابات تركز على قراءة الواقع قراءة إيديولوجية سياسية محاولة تجاوز الواقعي، إلا أنها مرتبطة به حيث تظل مصرة على الخطاب السياسي"² ذلك أن العمل الأدبي مرتبط بسياقه الإيديولوجي و " لا يمكن للكتابة أن تنطلق من فراغ إيديولوجي فحتى تلك الكتابة المتطرفة في إنكار واقعها هي في الحقيقة تعبر عن أحد مستوياته"³ ، ثم إن الأدب هو بالضرورة انعكاس إيجابي لحركة الواقع وما حدث بالنسبة للرواية الجزائرية المعاصرة إنما هو في حقيقته ترجمة أمينة لهذه المقولة، لذلك فإننا حين نقرأ الحصاد الروائي لهذه المرحلة على الرغم من تنوع مذاهبه واتجاهاته نجد أن القضايا السياسية تحتل مكانة بارزة في محاور تلك الروايات ومضامينها، ونجد هذه سمة في الروايات المكتوبة بالفرنسية والعربية على حد سواء، مما يؤكد غلبة الرؤية السياسية على الإنتاج الروائي الجزائري .

¹ - ميخائيل باختين (1825 - 1975) : ناقد أدبي روسي ، من أهم أعماله شعرية دوستوفسكي 1927 .

² - مشري بن خليفة ، سلطة النص ، منشورات الاختلاف ، ط 1 ، 2000 ، ص 109 .

³ - علال سنقوقة ، المتخيل والسلطة ، رابطة كتاب الاختلاف ، ط 1 ، الجزائر ، 2001 ، ص 14 .

إن هذه العناية بتصوير القضايا السياسية نجدها عند " الطاهر وطار " فقد حاول في كتاباته الروائية رسم خط تاريخي للتطور الإيديولوجي في الجزائر ، فانتقل من خطاب الثورة وتصوير ما حدث في مرحلة النضال مع المستعمر الفرنسي إلى التعبير عن مشكلات ما بعد الاستقلال وإدانة أساليب القهر السياسي الذي يسيطر على الحياة السياسية ، ويحد من حرية الإنسان ويعتدي على حقوقه الإنسانية ، ويمنعه من تناول أمور مجتمعه وذلك في إطار "تقديم وعي الطبقة المثقفة بمسألة السلطة وتصورها للعلاقات الاجتماعية والثقافية القائمة في المجتمع أو تلك التي ينبغي أن تقوم مستقبلاً"¹ .

ويبقى الخطاب الإيديولوجي مدارا يستقطب إشكاليات الرواية الجزائرية بعوالمها الواقعية والمتخيلة إزاء تهافت الواقع السياسي في الجزائر خاصة خلال فترة الحداثة التي شهدت جملة من الأحداث الساخنة والتحويلات المتسارعة المحلية والعالمية، فقد أصبحت " قضايا الفكر ومشكلات الإيديولوجيا هي القيمة الرئيسية والمحور الغالب عند كثير من كتاب الرواية العربية الكتاب يهدفون إلى القيام بوظيفة تسييس القارئ أكثر من حرصهم على إمتاعه وتسليته "² لذلك نلاحظ تفوق الوعي الإيديولوجي لديهم على الوعي الجمالي .

إن عملية الإبداع عند كثير من الأدباء تتشكل في واقع اجتماعي ملبد بالعواصف والأعاصير والزلازل والبراكين من أجل ذلك كله نجد معظم كتاب الرواية يتوجهون بجرأة نحو كشف مواطن السقوط ومراكز العفن في الواقع "³ فإذا كان نقد الواقع السياسي العربي قد شكل أهم ظاهرة إيديولوجية في الرواية، فإن حضور الإيديولوجيا ليس شيئاً غريباً عن النص الروائي ، إنها جزء أساسي من عالمه التخيلي يوهم القارئ بالواقعية والحقيقة الإنسانية "لا تستطيع تصور رواية بلا إيديولوجيا ، ولا تستطيع أن ترى الإيديولوجيا دون أن تكون متضمنة في خطاب لسانی ذي وظائف جمالية أو

¹ - علل سنقوقة، المتخيل والسلطة، ص 14 .

² المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

³ - طه وادي ، الرواية السياسية، الشركة المغربية العالمية للنشر والتوزيع ، لونغمان ، ط1 ، القاهرة ، 2003، ص 84.

اجتماعية أو تاريخية أو سياسية، فهذا الطابع الإشكالي يتيح للنص الروائي فهم علاقاته الداخلية وارتباطاته الإشكالية الخارجية " ¹ .

غير أن الاختلاف يتجلى في المنطلقات الاستراتيجية التي يعتمدها الكاتب في توظيفه للفكرة الإيديولوجية حيث " تتداخل القيم الجمالية وتتضافر مع الأفكار الإيديولوجية في الرواية السياسية، وأغلب كتاب الرواية يغلب عندهم الوعي الإيديولوجي على الوعي الجمالي " ² .

فالرواية في الحقيقة إذ تضحى ببعض تقاليد الشكل ، فإن ذلك هو الثمن الذي تدفعه من أجل الإيهام بالواقعية، لذلك الرؤية الإيديولوجية في روايات " الطاهر وطار " قد غلبت على الرؤية الفنية الجمالية خاصة في رواية " الولي الطاهر يرفع يديه بالدعاء " التي تعتبر أكثر النصوص السردية امتزاجا بالراهن والتصاقا بالواقع الإيديولوجي السياسي .

إذن الرواية الجزائرية قد غلبت عليها " قضايا السياسة " والمشكلات الإيديولوجية وتحديدا على نصوص " الطاهر وطار " الذي بدا أمرا طبيعيا يحكم قضايا الواقع وتعدد المشكلات الفكرية والاجتماعية.

تعرفنا في هذا المدخل إلى أهم النظريات التي ألقت الضوء على مفهوم الإيديولوجيا الذي عصي علينا تحديده وضبطه في مجال معين، وأهم الإشكاليات التي عرفها استعماله عبر مختلف العلوم الإنسانية، وعلاقته بالأدب كتجلى، وحامل فكري يعكس رؤى وتطلعات أفراد وفئات اجتماعية.

ومن خلال تطرقنا إلى علاقة الإيديولوجيا بالرواية، فإننا ننطلق إلى الدراسة التطبيقية وفق البعد الإيديولوجي في روايتي " رمّانة " و " عرس بغل " للروائي الجزائري الكبير الطاهر وطار.

¹ - علال سنقوقة، المتخيل والسلطة ، ص 42 .

² - طه وادي ، الرواية السياسية ، ص 32 .

الفصل الأول

البعد الإلكتروني في

رواية رمانة

- البعد السياسي
- البعد الجنسي
- البعد الاجتماعي والاقتصادي
- البعد الثقافي
- البعد العاطفي
- البعد النفسي

البعد السياسي:

يصرح الكاتب أنها تمثل بالنسبة له القضية : " رمانة مادة خام ، فتية ، رائعة الجمال ، مناضلة ، صامدة في وجه الحياة ، كلما نظرت إليها خيل إلي أنني أمام قضيتنا ، في عمقها وتفتحها وجلالها ، ونبل روحها " ¹ إنه يعني بذلك أن ما نجده من فشل في حياة رمانة ليس سوى انعكاس لفشل القضية.

منذ الفقرة الابتدائية للقصة يبدأ بحصد بعض من معاناة الشخصية الرئيسة ، وكذلك الكاتب والمجتمع ، الذين خدعوا جميعا بالأمل والثورة ، ليجدوا أنها لا تخبئ سوى استمرار المعاناة .

يبدأ الكاتب بوصف " رمانة " بكل جمالها والجو المترف الذي يحيط بها ، ليصل بنا كقراء إلى الحقيقة البشعة والماضي الأليم الذي يتوارى خلف هذه الصورة ، " فنجان قهوة يفور ، تنبعث منه رائحة لذیذة ، وأشعة الشمس تخرق زجاج النافذة ، والستار السابري المزركش ، وتستقر على جزء كبير من السرير ، فتضفي على لون اللحاف الوردي سحرا يبعث على النشوة والأحلام ، وهي جالسة على كرسي وثير ، عارية الصدر ، لا يغطي باقي جسمها سوى قميص نوم حريري أملس شفاف ؛ رفعت بصرها إلى المرأة ، فقابلتها نفسها : جميلة ، رائعة ... الشعر منسدل أسود ناعم و... ، تتهدت : بضاعة ، بضاعة ثمينة تروج في كل مكان ، وبانفعال انسحبت من الكرسي ، ، واستلقت على السرير ، عدا رأسها الذي داهمته سحابات ذكريات وخواطر وأحاسيس....وتتهدت مرة أخرى ، إنه بشع جدا ، استحضار صور أليمة من الماضي.... لكن ليس في الوسع دفعها " ².

الحقيقة ، رمانة عانت اليتيم بعد موت أبيها الذي لم يكن يملك شيئا ، ولم يترك وراءه شيئا ؛ وبعد موته حاولت الأم البحث عن عمل وفشلت في ذلك واضطرت للعمل في البغاء ومن ثم

¹ - الطاهر وطار ، رمانة ، موفم للنشر والتوزيع ، الطبعة الجديدة ، الجزائر ، 2004 ، ص 109 .

² - الرواية ، ص 9-10 .

لحقت بها " رمانة " لإعالة الأسرة. وكانت هذه أول صدمات " رمانة " ، اكتشافها للعالم الذي يخبئ القبح خلف الجمال ، وأن جمالها هي ووالدتها لم يفدهما إلا انغماسا في الضياع " لقد ساءني أن أكون رغم سحر جمالي بصورة عن ورقة يتلذذ بها الرجال ، ثم يقذفونني...."¹

وبعدها يتوالى الفشل الذي يلاحق " رمانة " مع كل حلم جديد ، حيث تذهب مع " الأعرج " للعمل خارج الحي القصديري حيث المدينة المبنية بالحجارة ، "وتصورت أفرشة حريرية وثيرة ، ونورا كهربائيا ، نوافذ مضيئة وغرفة لا تقاسمني فيها أمي ، وأشياء لا يتصورها عقلي"² وهناك خارج حياء القصديري لا تحصد "رمانة" سوى المزيد من الألم والضياع حيث تصطدم بالواقع الذي يجعلها تكتشف أن حياء القصديري قد يكون أكثر أمنا من العالم الخارجي ، " وغمرني شعور قوي، بأن حيناً، وإن حيناً، وإن انحط إلى أسفل سافلين، لا يخلوا من الرحمة "³، عندما تصبح " بيد سمسار أكبر يمتد نفوذه على مستوى البلد... هذا السمسار هو "بوعلام" المتزوج من مائة امرأة ويتشعب نفوذه من خلالهن في كل مكان.

في هذا البيت المنعزل ذي الحديقة المسورة بدأت حياة "رمانة" الجديدة مع "بوعلام" ولكن كان في البيت سمسار عجوز اسمه "مجدوب" الذي وقع في هوى "رمانة" وأطلعها على أسرار "بوعلام" ، وعلى ما يجنيه من أموال طائلة من تجارته بالنساء "⁴ ، فهو يملك عدة ملاح ليلية.

ولكن "رمانة" لم تستطع التأقلم مع الحياة الجديدة فحاولت العودة إلى الحي، فشتها "بوعلام" بقوة ووجه له صفة قوية، بعد ذلك أخبرها "مجدوب" بأن "بوعلام" لن يتخلى عنها

¹ - الرواية ، ص 30 - 31 .

² - الرواية ، ص 13 .

³ - الرواية ، ص 28 .

⁴ - نزيه أبو نضال، التحولات في الرواية العربية، المؤسسة العربي للدراسات والنشر، ط1، 2006، ص 239.

وأنها لا تستطيع الهرب منه لأنه سيجدها في أي مكان تذهب إليه، وأن فرصتها للخلاص منه بقتله .

وتكتشف "رمانة" من السمسار الأعرج أن أمها قتلت، ويساعدها "مجدوب" في الخروج من البيت للاطمئنان على أختيها ، وحين تدخل يهتز قلبها وتتحدردموعها ويغمرها شعور قوي بالامتنان ثم تعود "رمانة" مع "مجدوب" وقد قررت في نفسها أن تتنقذ شقيقتها.

بعدها تستهوي "رمانة" مرحلة جديدة مع "بوعلام" عندما يقدم لها هدية ذهبية على شكل سلسلة ، ويعدها بمزيد من الهدايا مستقبلا ، في الليل تصحو "رمانة" على "بوعلام" وهو يتحدث في نومه قائلا " . هاتوا الذهب وألقوا بها في البحر"¹ وتكتشف أن "بوعلام" قتل امرأة، فتحس بالخوف منه وتهرب منه وهو نائم ، وتسرق محفظته لتستعين بها على الاختفاء في مكان آمن، "فبوعلام" لن يتركها تعيش بسلام .

وفي طريقها يصادفها رجل اسمه "صالح" يأخذها إلى شقته الخاصة بنزواته، بعدها تروي "رمانة" حكايتها الكاملة، فيشفق عليها ويقرر إبقاءها في شقته حتى ييأس "بوعلام" من العثور عليها .

كان صالح قد فتن بجمالها، كما أنه تعاطف مع رغبتها بأن تعلم شقيقتها، وبأن تبدأ حياة جديدة ونظيفة، لن ماذا تستطيع أن تعمل وهي الأمية الجاهلة التي لا تتقن أي مهنة " ي يوم ما وهي تفتش في المحفظة التي سرقتها من "بوعلام" لكي تحصي ما معها من نقود، تكتشف أن "بوعلام" كان يجهز أوراقا رسمية لكي يبيعها نقدا كما يبدو في أحد أسواق الرقيق البيض، ثم تكتشف كذلك بمساعدة صالح بأن الموال التي سرقتها جميعها مزيفة فيقومان بإحراقها "².

¹ - الرواية ، ص 36 .

² - نزيه أبو نضال، التحولات في الرواية العربية، ص 241.

وذات يوم يدخل "صالح" إلى البيت صارخا: "رمانة. رمانة. مبروك ألف مبروك. انتفضت مذعورة، فوجدته هو صالحا، يلهث ويلوح بصحيفة في يده.

- ماذا ؟ ماذا هناك ؟

- انظري : لقد ماتا ، بوعلام ومجدوب.

- صحيح، هل صحيح ؟ آه يا رب.

هزنتي فرحة، فوثبت من السرير عارية، وعانقته، بينما راح هو يقرأ ويترجم لي " في الساعة الخامسة... وقعت مشادة في مرقص ليلي ، ذهب ضحيتها السيد مجدوب والسيد بوعلام...."¹.

وهكذا تنفتح أمام "رمانة" لاستقبال التطورات اللاحقة والتفاعل معها، ولكن القدر يوجه لها ضربة قاسية بموت "صالح" إثر حادث سيارة، وكتب على "رمانة" أن تبدأ من جديد واضطرت للخروج مرة ثانية إلى الشوارع لتلتقط الزبائن ، فثمة التزامات لا بد من تغطيتها: أجرة البيت ومصاريف «فايزة و ربح» اللتين التحقتا بإحدى المدارس.

وذات مساء حدث تطور كبير في حياة "رمانة" قلب حياتها رأسا على عقب، حينما تلتقي برجل متخف بزي البدوي الذي أصبحت تدعوه "خالي" والذي يتحول إلى منقذ حقيقي لرمانة واستطاع أن يغير مسار حياتها وينمي وعيها السياسي والاجتماعي، ويشرح لها معنى السياسة، يقول: "إنني اشتغل بها، أهرب من الشرطة والعسكر، أنا وجماعات كثيرة، لأننا نريد تغيير الأوضاع، نريد القضاء على مصدر كل الآلام، ويتعلم كل الناس ويتداوون ويشبعون، ويسكنون في المباني الضخمة، ولا يذلون، ولا يسيطر عليهم تاجر أو سمسار أو أي سيد آخر"²، ويساعدها على تعلم القراءة والكتابة حتى صار بإمكانها توصيل الرسائل بل إنه وجه "رمانة" وجه "رمانة" لتتعلم مهنة بسيطة وهي صناعة اللعب للأطفال بوسائل

¹ - الرواية، ص 59 .

² - الرواية، ص 94 .

رخيصة ومتوفرة فنقول : " - هاتي قطعة قطعة ثياب، ومقصا، أعلمك مهنة، أحضرت له ما طلب ، فصل جملا وحمارا وأرنبة وكلبا وعدة حيوانات ، ثم أراني كيف أخطبها وأحشوها بالنخالة.... وأكد لي أنني أستطيع كسب قوتي من هذه المهنة السهلة، لم ينقطع عن الإلحاح والتأكيد حتى صنعت له أرنبة "1.

وهكذا تتحول "رمانة" إلى سيدة جديدة ، ويتقدم للزواج منها أحد تجار التحف وتتابع تعليم أختيها والإشراف على تربيتهما، هذا التاجر لا يشبع طموح "رمانة" الذي فجّره "الخال" في أعماقها بأن تكون الحياة أكثر معنى وتنوعا وعدلا، ولكن "الخال" الذي اضطر إلى مغادرة البيت على هيئة متسول ، لا يلبث أن يستشهد بين يديها في ظروف غريبة لم تتمكن حتى من تذكرها وذكرها لنا... ذلك تاجر التحف يعود إلى البيت، ويقطع على "رمانة" ذكرياتها وحكاياتها، وهي في ذروة توهج الحكاية البطولية التي صنعها "الخال"، وبهذا القطع المفاجئ يختتم "الطاهر وطار" بعبارة هتفت بها "رمانة" في نفسها: " عليه اللعنة تاجر التحف الوضع"2 هذه اللعنة التي أطلقها "رمانة" هي " إشارة رمزية كبيرة للتطور الذي شهدته الجزائر؛ صحيح أن الجزائر قد استعادت شرفها وحريتها من براثن المستعمر الفرنسي، كما استعادت "رمانة"، إلا أن الأوضاع الجديدة التي أعقبت الاستقلال لا تزال تنتظر الكثير من أجل العدالة والمساواة والحرية الحقيقية للإنسان "3؛ إذن الفشل في تحقيق الطموح السياسي الذي ارتبط هنا بتحقيق أهداف الثورة وحصد نتائجها بالوطن والمواطن، وإذا كانت "رمانة" هي القضية، والقضية هي الوطن الذي يعتقد أن يتحرر بعد الثورة، بقي بضاعة في أيدي التجار الفاسدين: بوعلام والقاضي، والسادة المحترمين ، والذي لم يستطع أن يخرج بنفسه من حالة الضياع

1 -الرواية ، ص 105 .

2 - الرواية ، ص 103 .

3- نزيه أبو نضال ، التحولات في الرواية العربي ، ص 243 .

والبؤس، فتساوى حاله في "الحي القصديري" و "الأحياء الحجرية"، والذي مازال يعاني الفقر والجهل، ويطارده الخونة ويمنعون الشرفاء من أبنائه (الخال) من مساعدته وتغيير حاله، والذي كان بضاعة قبل الثورة، بضاعة رخيصة وبعد الثورة، وكذلك وإن غلقت الصورة لتصبح أكثر قبولاً (الزواج من تاجر التحف) فهو بقي على حاله، ليس أكثر من بضاعة بين أيدي شكل جديد من التجار وشكل أكثر رقياً من أشكال التجارة.

البعد الجنسي:

إن أغلب روايات "الطاهر وطار" تتكلم عن قضية البغاء التي تتعلق بالجنس وهي قضية معروفة منذ القدم، كما أنها منتشرة في كل المجتمعات الإنسانية "فالبغاء مؤسسة اجتماعية اقتصادية عزز وجودها وانتشارها الرجل الرأسمالي الذي أراد أن يتحلل من علاقات الزواج الأحادية في الأديان السماوية، مفرغا بعض حاجاته عبر علاقة بامرأة أخرى غير الزوجة.

ويظهر بعد هذه المؤسسة الاقتصادية في دخول الجسد الإنساني في لعبة المادة والتجارة، بدءا بتجارة الرقيق والسبايا، وانتهاء بالبغاء وما يشابهه من امتهان لجسد الإنسان لصالح مؤسسة ما؛ ومن هنا يتم التفريق بين ممارسة الجنس طوعا مع الغرباء، وبين ما تقدمه المرأة مقابل مبالغ من المال¹، ومنها رواية "رمانة" التي تطرح لنا صورة البغاء والأسباب التي تدفع إلى ممارسة هذه المهنة.

إن "رمانة" في الرواية فتاة في السادسة عشر من عمرها، جميلة جدا، تنتمي إلى أسرة فقيرة، ويظهر ذلك من خلال قوله: "... رفعت بصرها إلى المرأة، فقابلتها نفسها رائحة... الشعر منسدل، أسود ناعم، على عنق أبيض طويل، وعلى صدر مكنتز عريض.

العينان لوزيتان عسليتان حالمتان .

الأنف مستقيم لا يشوبه عيب، متناسق مع الوجه المستدير والذقن الممتلئة الجميلة، والفم الصغير...².

¹ - لجنة عوض، تجربة الطاهر وطار الروائية بين الإيديولوجيا وجماليات الرواية، أمانة عمان الكبرى، 2004، ص 159.

² - الطاهر وطار، رمانة، ص 09.

والحقيقة أن "رمانة" قد طرأ تغير على حياتها بعد وفاة والدها، الذي لم يترك لها ولأمها وأختيها ما يعتاش منه، فاضطرت إلى ممارسة البغاء، بعد أن يئست الأم من إيجاد عمل يقيت الأسرة؛ تقول رمانة: "خرجت أُمي المسكينة تبحث عن عمل يوما وثانيا وثالثا... وعاشرا... ولكنها كانت في كل يوم تعود بقاذورات تلتقطها من مزابل أسواق الخضر... فانفتح باب كوخنا على مصراعيه... كانت أُمي جميلة وكنت أجمل منها بكثير... واستقبلناهم. تمنعت أياما، ثم تحطم كل شيء، كان حيننا القصديري كله منغمسا في التفاهة والضياع فلم نجد غير فعل ذلك"¹.

إذن فرمانة في الرواية ترمز إلى الطبقة الكادحة في الجزائر التي انغمست في الضياع بدافع الفقر والجهل، فالبغاء لم يكن سلوكا إراديا، ولكنه فرض عليها فهو جزء من اللادالة الاجتماعية.

أيضا، نلاحظ أن جمالها هي ووالدتها لم يفدهما، بل كان سببا في انحراف سلوكهما، "لقد ساعني أن أكون رغم سحر جمالي صورة عن ورقة يتلذذ بها الرجال ثم يقذفونني..."²؛ كما أن الوعي الزائف الذي يلاحق "رمانة" مع كل حلم جديد حينما تذهب مع "الأعرج" للعمل خارج الحي القصديري حيث المدينة المبنية بالحجارة، بعدما كانت ترفض الخروج من الحي، تقول: "...راقت لي فكرة الخروج من هذا الكوخ وهذا الحي... واقتحام منزل في العالم الآخر، في المدينة المبنية بالحجارة، وتصورت أفرشة حريرية وثيرة ونورا كهربائيا، ونوافذ مضيئة، وغرفة لا تقاسمني فيها أُمي، وأشياء لا يتصورها عقلي..."³.

ورغم التفاوت الاجتماعي بين العالمين، إلا أنها لم تدرك ذلك التناقض بين عالم الفقراء وعالم الأغنياء، وهكذا فرمانة تتأقلم بسرعة مع واقعها الجديد، وفق مقاييس

¹ - الرواية ، ص 11 .

² - الرواية ، ص 30 - 31 .

³ - الرواية ، ص 12 - 13 .

وقيم وعلاقات تختلف جذريا عن قيم وعلاقات الحي القصديري "... ودون أي تردد أغمضت عيني، واحتسيت المشروب الأحمر، وكأنني أتجرع دواء... كان عذبا مع حموضة، هبط ساخنا إلى حلقي... فتحت عيني فوجدت يده تقدم لي كأسا ثانية تناولتها في يدي ورحت أرتشف منها، والدفع يتصاعد إلى كامل جسدي، وقلبي ينفث بسرعة للضوء الأحمر"¹

وتبقى "رمانة" مرتبطة بالحلم الوردي، مرتمية في أحضان "بوعلام" و"مجدوب" وغيرهم؛ لكن وعي "رمانة" لم يظهر في ظل هذه الظروف، وإنما كان غائبا وعاجزا "... وعجزت في إقناع نفسي بالرضوخ إلى الأقدار، وبأن هذه الحياة التي أحيلها رغم عدم انسجامي معها هي على أية حال أفضل من حياتي السابقة"².

وكلما نشعر أنّ "رمانة" ستدرك واقعها، نجد أنها لا تعي هذا الواقع، إذ أصبحت سلعة ثمينة ضمن التبادل السلعي "... إنني لست بضاعة، وبقين أنني من البضائع الثمينة... سأشتغل لنفسي... الريح الكثير خير من الريح القليل، والريح السريع خير من البطيء... سأجمع نقودا ونقودا، وسأشتري منازل في المدينة... وأخضع قلوب السادة المحترمين، وأنتقي لنفسي، لا قاضيا ولا شخصية غامضة وإنما أختار ضابطا ساميا يستطيع حمايتي"³.

ولم يتجاهل وضعها هذا حتى "صالح"، الذي بدا في أول الأمر على أنه طيب إلا أنه بقي ينظر إليها بنفس نظرة "بوعلام" و"مجدوب"، حيث نجده في سياق حديثه يقول: "... حقا إنك لمتعة، وإن جمالك الفتان لا يشبع... ويضيف قائلا " تمنيت لو لم أكن متزوجا، وكنت في سن أصغر، لاتخذتك عشيقا"⁴، فهو شخصية

¹ - الرواية ، ص 18 .

² - الرواية ، ص 30 .

³ - الرواية ، ص 37 .

⁴ - الرواية ، ص 71 .

بورجوازية مستغلة، تقف لمحاصرة كل طموحات "رمانة"، وقتل الوعي في نفسها، فهو يمثل بالنسبة لرمانة الحلم الذي سيخرجها من دائرة الفقر والبؤس والشقاء.

و ذات مساء حدث تطور كبير في حياة "رمانة"، قلب حياتها رأساً على عقب عندما تلتقي في الشارع برجل متخف بزي بدوي، والذي استدعوه بعدها "خالي" وهكذا تبدأ "رمانة" رحلة جديدة نحو عوالم المدينة الغامضة، فتتحول من بضاعة ثمينة إلى رفيقة نضال، وتدرجياً تنتقل إلى مرحلة وعي جديدة.

ويمكننا القول في هذا الأمر أن مثل هذه الأسباب التي تدفع بالفتاة إلى ممارسة البغاء ليست حلاً مناسباً، بل إن الالتجاء إلى العهر صورة نمطية تفتقر إلى المنطقية، وهو أمر وإن برره "وطار" للمرأة، إلا أنه يبقى في الإطار الذي يسيء إلى حضورها، ويشير بوضوح إلى سلبيتها في مواجهة واقعها .

البعد الاجتماعي و الاقتصادي:

" يظهر البعد الاجتماعي في رواية "رمانة" من خلال " الفشل في إشباع الحاجات المعنوية كالانتساب إلى مجموعة من الناس واكتساب احترامهم وتقديرهم بسبب عوائق مادية أو حضارية كانتسابه إلى عائلة أو أقلية معينة أو وجوده في وضع اجتماعي معين "¹ إنها حياة الفقراء، حياة "رمانة" وأسرته وحيها القصديري بالكامل ، فكما يقول "بوعلام" وتردد رمانة لنفسها أكثر من مرة " الفقراء ميتون من يوم ولادتهم "².

وهذا الوضع الاجتماعي المتأزم الذي عاشته الشخصية لا يتوقف عن مطاردتها من طفولتها الفقيرة عندما كانت ترافق والدها أحيانا لبيع البيض في أحياء الأغنياء أين ترى المنازل الحجرية والأضواء التي لا تحلم بالحصول عليها، وهذا الوضع الذي لم يتغير لاحقا، ولم يغادرها حتى في أوقات الفرح والأعياد " أضفت، وفي صوتي تكدر... يوم مات والدي، واشترى لنا البرادعي أربعة أرطال، ويوم تزوج أختي ذبح جديا... في الأعياد كان أبي يحمل خنجرا وحبلا، ويقصد المدينة ليذبح أكباش السادة المحترمين، ويعود في المساء بصدقات نتقاسمها مع الجيران "³.

إن هذا الوضع الذي كان يصبغ كل لحظات المتعة بالمعاناة، أبعدها عن الحياة بشرف ليكبلها لتكون حلقة في سلسلة البؤس والمعاناة، فهي ليست سوى فرد في مجتمع الفقراء والمحرومين لذلك تتبع طريق الضياع، فتقول: " خرجت أُمي المسكينة تبحث عن عمل، يوما وثانيا وثالثا وعاشرا. ولكنها كانت في كل يوم تعود بالقاذورات تلتقطها من مزابل أسواق الخضر... فانفتح باب كوخنا على مصراعيه

¹ - الطاهر وطار، الطعنات، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ص 141 .

² - الطاهر وطار، رمانة ، ص 32 .

³ - الرواية ، ص 62 .

... كانت أمي جميلة، وكنت أجمل منها بكثير... واستقبلناهم. تمنعت أياما ثم تحطم كل شيء. كان حيننا القصديري كله منغمس في التفاهة والضياح، فلم نجد غير فعل ذلك¹.

ولم يتجاهل وضعها هذا حتى "صالح" على ما بدا عليه أول الأمر من طيبة يجعله يؤكد عجزه عن مساعدتها، لأنها لا تصلح في نظره سوى لمهنة البغاء فهي غير متعلمة، وأجمل من الخدمة في البيوت، حتى عندما يقع في حبها فهو يتخذها عشيقه، وهي تقنع بذلك راضية بإيوائه له في بيتها، وقدرتها على إحضار أختيها وإدخال الصغرى إلى المدرسة.

تبقى "رمانة" من بداية القصة إلى نهايتها حبيسة جهلها وفقرها وحيها القصديري وإن خرجت منه تبقى بضاعة عند "بوعلام" ثم عند "صالح" الذي تستمر في بيع نفسها بعد موته، حتى بعد لقائها لخالها الذي يحرك فيها الوعي والطموح إلى التحرر، ويحاول إعطاءها مفاتيح الخروج من سجنها بتعليمها القراءة للقضاء على جهلها، وتعليمها مهنة تعفيها من العمل في البغاء، غير أن الأمر انتهى بها بضاعة في يد "تاجر التحف" الذي تزوجها ليحتفظ بها كواحدة من تحفه.

ترمز "رمانة" في الرواية إلى الطبقة المعدمة في الجزائر التي انغمست في الفساد بدافع الفقر والجهل؛ فهي ليست داعرة بإرادتها، لكن اللاعدالة الاجتماعية التي تستبد بالبلاد تفرض عليها ممارسة البغاء. سألتها "صالح" أحد زبائنهم مرة: "تبغين عيشة شريفة؟ فأجابته: نعم"² فهي لم تختار سلوك طريق البغاء راضية، لكنها لم

¹ - الرواية، ص 11.

² - الرواية، ص 67.

تجد سواء وسيلة لتأمين مستلزمات الحياة الضرورية لأختيها الصغيرتين. تقول: " أريد أن أهتم بأختي، وأدخلهما المدرسة "¹.

يربط الطاهر وطار في الرواية، من منطلق يساري، بين الخلل الطبقي في المجتمع وبين الفساد، مستثيرا شفقتنا على "رمانة" التي وقعت ضحية للفقر والجهل. ويقدم إزاء هذه المعاناة الطبقيّة التي تحياها "رمانة" شخصية رجل متخف في زي بدوي، تدعوه "رمانة" كأبي زبون إلى منزلها. إلا أنه لا يعاملها كعاهرة بل كضحية فينبهها إلى ضرورة الاعتناء بصحتها، ويعلمها القراءة والكتابة، إلى جانب حرفة تكسب بها قوتها، ويرعى أختيها الصغيرتين؛ إذ تقول "رمانة" في نفسها: " أحسست لأول مرة أنني إنسانة... وأني لست بضاعة؛ بضاعة ثمينة... "². يظهر بصورة المخلص الذي يريد القضاء على مصدر الآلام في المجتمع وتحقيق العدالة فيه على أساس يساري، يقول لرمانة: " نريد القضاء على مصدر كل الآلام، ويتعلم كل الناس، ويتداوون ويشبعون، ويسكنون في المباني الضخمة، ولا يذلون، ولا يسيطر عليهم تاجر أو سمسار، أو أي سيد آخر... "³.

يأتي هذا الكلام بمثابة البعث لرمانة التي ذاقّت مرّ الفقر منذ طفولتها، وحرمت من دخول المدرسة، وسكنت في كوخ قصديري، ومنعت في صغرها من مقابلة الطبيب في المستشفى لأنها لا تحمل بطاقة فقر، وعانت بعد وفاة والدها من استغلال الطبقة الغنية لها. لذا فهي تشعر إلى جانب هذا الرجل الذي أصبحت تناديه "خالي" بـ " أقصى ذرى الهناء والطمأنينة "⁴؛ فهو يشكل الدفء الذي تسعى إليه دائما الطبقة المعدمة في الجزائر.

¹ - الرواية، ص 63.

² - الرواية، ص 97.

³ - الرواية، ص 94.

⁴ - الرواية، ص 98 - 99.

يعلن هذا الرجل اليساري في الرواية أنه من أجل القضاء على الاستغلاليين في الجزائر لا بد من القضاء على أسباب وجود ظاهرة الاستغلال فيها؛ فهؤلاء الاستغلاليون "صادقون في موقفهم من الحياة، ذلك أنهم يخضعون لظروف معينة"¹ لا بد من تبديدها.

يدعو "الطاهر وطار" اليساري النزعة في رواية "رمانة" إلى بناء مجتمع اشتراكي، غير أن أشكال دعوته وإن اختلفت، فهي تصب دائما في مبدأ واحد هو العدالة الاجتماعية؛ فهو - كما يتضح لنا من خلال الرواية - يؤمن بأن صلاح المجتمع واستقراره يأتي نتيجة توفر المساواة في العيش بين أفرادهم جميعا. ويدعو من خلال روايته "رمانة" إلى إلغاء الطبقة، فليس من العدل في رأيه أن يجوع قوم ويحيا قوم آخرون في حالة من الترف.

كما أن البعد الاقتصادي يرتبط بالواقع بشكل أعمق وأوسع، إذ يصور مشكلات هذا الواقع وهمومه على طبقة اجتماعية كاملة، فهموم شخصياته مرتبطة بهموم الواقع الذي يحتويها، "و إنّ الفشل في إشباع الحاجات، منها الفسيولوجية مثل الجوع والجنس والأمن، والابتعاد عن الألم والحصول على اللذة بسبب عوائق مادية مثل نقص المال وما يلزم من مقومات مادية"².

"في رواية "رمانة" ينقلنا الطاهر وطار إلى حياة شريحة اجتماعية بائسة، أحياء الفقر والصفوح في الجزائر، حيث تضطر النساء لبيع أجسادهن لتأمين الرغيف للأطفال الجوعى... وهذا ما فعلته رمانة وأمها"³ بعد فقدان معيل الأسرة والد "رمانة"، وفشل والدتها في الحصول على عمل لتضطر للعمل في البغاء الذي أوقعها في براثن "بوعلام"، الذي طمع أن يربح منها ربحا وفيرا وسريعا؛ إن "رمانة"

¹ - الرواية ، ص 95 .

² - الطاهر وطار، الطعنات، ص 132.

³ - نزيه أبو نضال، التحولات في الرواية العربية، ص 237 - 238.

هي مثال حي لمعاناة فئة كبيرة من المجتمع الذي لم يتعلم من المهارات والقدرات ما يؤهله لاستثمار طاقاته بما يعود عليه بالنفع، وعلى المجتمع بالفائدة .

"رمانة" ذلك القلب الفتي المتوثب الطموح، اصطدمت بفقرها وعجزها، ولم تحصد سوى المزيد من الفقر والذل واليأس. إن احتياجها لدار صالح هو الذي فرض عليها أن تبقى عنده بضاعة رخيصة، بعد فشلها في الحصول على الأموال من "بوعلام" واكتشافها أنها أخذت منه أموالاً مزيفة عند هروبها منه، ثم موت "صالح" وتركه لها دون مال كاف انتهى بعد وفاته بشهرين، لتعود للعمل في الشارع، فعدم امتلاكها لأي مقوم مادي، أي شيء لتتاجر به سوى نفسها، حوّلها إلى بضاعة كما بقيت تردد طوال القصة بضاعة تنتظر من يشتريها أو يتاجر بها.

البعد الثقافي:

عملت السياسة الاستعمارية منذ سيطرتها على بلدان شمال إفريقيا على غرس لغتها في النسيج الثقافي لهذه البلدان، ومثل جميع المجتمعات المغلوبة على أمرها استجابت نسبة من المجتمع الجزائري لأدوات التهميش والاستلاب الحضاري، نظرا إلى أن جل المعاملات كانت تتم باللغة الفرنسية الرسمية، وقد سعت كثير من حركات التحرر إلى مقاومة هذا الخطر، حتى أنه يمكن القول أن المقاومة المسلحة رغم أن أهدافها الأساسية سياسية واجتماعية، فإن أبعادها العميقة ثقافية.

ولقد مثل استرداد الهوية جزءا من النضال السياسي ضد المواقف المهيمنة التي ميزت موقف السياسة الاستعمارية من الثقافة العربية والإسلامية، وارتبط التعريب بالكفاح المسلح، خاصة أن السلطة الاستعمارية حاولت تكريس فكرة كون الجزائر مقاطعة فرنسية، فتم العمل على نفي سمة العروبة عن الجزائر، ومنذ تسلم الحكومة الجزائرية السلطة قررت تعريب الإدارة والمؤسسات بشكل تدريجي، ورغم أن طرح مسألة التعريب من دلائل تمكن اللغة العربية المحافظة على موقعها، باعتبارها مظهرا من مظاهر الهوية الوطنية الجزائرية، وإكساب النضال بعده الثقافي والحضاري، إذ أن التحرر لم يكن إنجازا تاريخيا وحضاريا أيضا، إلا أن هذه اللغة لم تتمكن من السيادة في فترة الاستقلال الأولى، ولم تطرح القضية البربرية أثناء الكفاح المسلح باعتبار أن جبهة التحرير تمكنت من صهر جميع التيارات والإيديولوجيات من أجل الاستقلال، كما لم تطرح إبان فترة الاستقلال الأولى على الرغم من أن المسيطرين على الحكم كانوا عربيين.

إن قضيتي اللغة العربية والمسألة البربرية تعتبران من أهم المسائل التي حاولت السلطة معالجتها، ويمكن القول بأنها كثيرا ما ارتبطت بتوجهات الدولة السياسية وإذا كانت مسألة اللغة بالنسبة إلى السلطة يمكن اعتبارها اللبنة الأولى التي على

أساسها يمكن للمجتمع الجزائري استرداد شخصيته التي شوهدا المستعمر، وبناء دولة مستقلة اجتماعيا واقتصاديا وثقافيا، فإن نظرة "الطاهر وطار" بصفته كاتباً سياسياً إلى الواقع الثقافي في فترتي الستينات والسبعينات تتجلى في قوله: "الواقع أنه منذ استقلال الجزائر كان تهميش للثقافة على المستوى الرسمي..."¹.

لذلك نجد في رواية "رمانة" أن "الطاهر وطار" يدعو إلى التمسك باللغة العربية والبربرية، وبالرغم من ضعف تلك الإشارات إلا أننا لا يمكن أن نستثني بعضها فيما يخص اللغة العربية، حيث أنها تطرح بشكل عرضي حين يقوم "الخال الشيعوي" بتعليم "رمانة" القراءة والكتابة، تقول "رمانة": "أخرج ورقة وأعطاني قلماً أمرني بإمساكه بين أصابعي، وسواه جيداً، ثم تناول يدي وخط على الورقة وهو يردد:

ـ "أ أ ... انطقي، انطقي هذا هو الحرف الأول من الحروف الهجائية... ينبغي أن تتعلميه."²

ـ "تعالى الآن. أ. عندما نكتب نضع عليه هذه النصبية. أ. كأحمد وأسد وأمل. وعندما نضع هذه الرفعة ننطق به أو. أمة، أخت. اكتبى ألف بالرفع وانطقي أ، أ... هيا أسرعى. مائة مرة."³

ـ "فسارع إلى إخراج ورقة بيضاء، وأمرني أن أكتب أ، أ، أو... وبسرعة كتبتها يصفق:

ـ رائع. رائع والآن إي. قولي: إي... إبليس، إيمان، انظري عندما نضع هذه الشلطة تحت الألف ننطق إي... هيا اكتبى خمسين مرة لأعلمك حرفاً جديداً.

ـ إي، إي...

¹ - <http://www.khayma.com/Wattar/lire/testi%20lat/alquds20%newspaper> . HTm.

² - الطاهر وطار، رمانة، ص 91.

³ - الرواية، ص 92.

نطقت واعتذلت لأكتب¹

مثلاً نجده يؤكد على خصوصية الثقافة الشعبية الجزائرية حيث تردد "رمانة" مقطعا من أغنية شعبية:

" أما سيدي عابد... أما يشعشع نوره ...

فيعلق "الخال" على ذلك بقوله:

من أعماق الشعب... من جذوع نوره"².

كذلك عندما يقول :

" آش بغالي، وصلني لخال، واخوالي في توسه، ذبحوا لي فلوسه "³ .

وكذلك عندما تقول "أرملة البرادعي": " يا جاري يا حمود... يا جاري دبر علي...

الناس تبات رقود... وأنا النوم حرام عليا"⁴ .

¹ -الرواية ، ص 96 .

² - الرواية ، ص 90 .

³ - الرواية ، ص 76 .

⁴ - الرواية ، ص 27 .

البعد العاطفي:

إن غياب العاطفة في حياة "رمانة" أدى بها إلى "الفشل في إشباع الحاجات المعنوية كنيل الحب والعطف ورضا الأشخاص المهيمن في حياة الفرد"¹، والذي صاحبها منذ تفتحها كامرأة مع "بوعلام" عندما تعتقد في بداية حياتها وهي في بيته أنه قد أحبها، وتظن لوهلة عندما يخبرها بقدم القاضي أنه جاء لتزويجها لتكتشف أنها لم ولن تخرج عن دورها كبضاعة " وأجلسني بلطف إلى جانب السيد القاضي ... فاستسلمت... ورنيت في ذهني قهقهة بوعلام عندما سألته هل ستتزوج مباركة بمجدوب، وخاب أمني في أن القاضي جاء ليزوجنا "².

تكتشف "رمانة" أن بوعلام سيستمر في استغلالها، وأن حبه لها لا يتعارض في نظره مع متاجرته بها لأنها بضاعة، إن لم يتاجر بها هو سيتاجر بها غيره، وأن الربح الكثير خير من القليل والسريع خير من البطيء. تتأكد لها هذه الصورة مع "مجدوب"، الذي يتوله بها لكنه لا يتنازل عن حقه في المتاجرة بها: " لو لم يكن اللعين متعلقا بك لتزوجتك، ووهبت لك كل مراقصي.

_ وتتاجر بي مثله.

_ طبعاً. طبعاً، مثلما نتاجر بالذهب والألماس، وبحياتنا..."³

وتستمر هذه الصورة المظلمة حتى مع "صالح" الذي اعتقدت في البداية أنه سيد محترم، ولكنه أيضا يبقى بالنسبة لها تاجراً، وهي بضاعة " كنت قررت صرفه إلى منزله الحقيقي، ولكن عدلت في لامبالاة وأنا أشعر بأنه صاحب القرار النهائي وأنني فريسة وبضاعة، لا كلمة لي..."⁴، لتنتهي آمالها عند موت "صالح" في

¹ - الطاهر وطار، الطعنات، ص 131 .

² - الطاهر وطار، رمانة، ص 29 .

³ - الرواية، ص 57 .

⁴ - الرواية ص 10.

حادث سيارة بعد أن كان وعدها بالزواج ، لتكتشف أنها لم تكن سوى عشيقه لا حقوق لها، عندما تأتي والدته لتبليغها بموته وتأخذ ابنه وتعطيها عقد إيجار البيت الذي تسكن فيه، ومبلغا من النقود تنهي به بعد شهرين، مما يعيدها إلى العمل في الشوارع وانتقاء الزبائن .

أما قصتها العاطفية الثالثة فتنتهي بفشلها وإن اختلفت الأسباب، بعد أن تعيش مع "خالها" أجمل أيامها، وتجدر الحب والاهتمام الحقيقي، لكن النهاية لا تختلف كثيرا، تحركها ظروف الوطن عندما يجبر "خالي" على مغادرة منزلها متخفيا خوفا على حياته.

وتختتمها الأقدار بموت "خالها" بين يديها شهيدا، لتعود كما بدأت بضاعة عند زواجها من "تاجر التحف"

" هذا التاجر التافه اشتراني، وضعني هنا في منزله كما يضع أية تحفة وانصرف إلى جشعه يجمع كل ما عند الآخرين، لكنني أحبته ذات يوم... لا بد أنه أغراني، لا أبدا، أردت أن أتأكد من أنني بضاعة ثمينة. أردت أن أذله، أن أنتقم لنفسي، فقد تأكدت من ذلك منذ أمد بعيد، منذ عشر سنوات، يوم كنت في السادسة عشرة ¹ .

وهكذا انتهت عاطفتها بعد فشلها المستمر لتذوب وتموت.

¹ - الرواية ، ص 10 .

البعد النفسي:

إن كل هذه الأسباب والمشاكل المختلفة تتحول إلى معاناة نفسية قد تسبب انحرافا في السلوك، ومن ثم إحساسا بالذنب والفراغ وعدم الجدوى، بالإضافة إلى شعور الفرد أنه غير صالح للحياة لفشله في بلوغ أهدافه، وأنه غير نافع، وغير محظوظ، وغير كفء، وغير مرغوب فيه. وهو ما عانت منه "رمانة"، لحظات اليأس من الخلاص من تغيير حياتها البائسة، كانت تذكر في استسلام لبوعلام " عم أبحث في هذه الحياة ؟ لأكن له. لأكن له... ليفعل ما يشاء، أسمر المشعر الفتى... لأسكر وأسكر... وأفنى وأفنى... ليربح مني الأموال الطائلة " ¹.

وتفقد أي معنى للحياة والأخلاق كما نرى في ردها على لب "مجدوب" منها أن تنام معه " معك أو معه أو مع القاضي أو الشيطان. لا يهم، ما دمت هيكلًا بلا روح، بلا خجل ، بلا تردد " ².

إنها المعاناة التي جرتها إلى تعاطي الخمر الذي ساعدها على النسيان، وجرها لمزيد من الانحراف كما تصف هي لقاءها الأول بصالح الذي عرفت أنه متزوج وله أبناء "... واستسلمت له، رغم شعوري بأنني أسرق، آكل جيفة، وأزني أمام أمي، وعندما احتسيت الكأس الرابعة صعدت اللامبالاة إلى رأسي، غمر جسمي الدفء، فانطلقت... وقد غادرت الزمن، فنسيت ماضي وحاضري ومستقبلي..." ³.

إنها حياة "رمانة" التي باعنتها بدون سلاح، دون تجارب سابقة، دون أمل في المستقبل، دون عائلة، سوى أب ميت وأم سبقتها لطريق الضياع، وأختين صغيرتين

¹ - الطاهر وطار، رمانة، ص 36 .

² - الرواية ، ص 27 .

³ - الرواية ، ص 42- 43 .

لا ترى فيهما سوى امتداد لحياتها البائسة، في مقابل كل هذا لم يبق لرمانة سوى قوتها وفطرتها السليمة ، وطموحها بمستقبل أفضل لها ولأختيها .

الفصل الثاني

البعد الإلكتروني في

رواية عرس بخل

- البعد السياسي
- البعد الديني
- البعد الاجتماعي و الاقتصادي
- البعد التراثي
- البعد التاريخي
- البعد الثقافي
- البعد النفسي

البعد السياسي:

تكشف رواية "عرس بغل" حقيقة البرجوازية، وتفضح المتهاافت من الممارسات إزاء الفئات الشعبية التي وقع تهميشها زمن الاستقلال، وتعبّر عن عمق مأساة الجزائر التجربة الاشتراكية في ظل انتهازية الطبقة البرجوازية يقول "الطاهر وطار" عن الرواية: «تصور رواية "عرس بغل" أعراس البرجوازية الوطنية عندما تثور على الإقطاع باسم الطبقة العاملة. هذه ثورة عميقة بدون دوافع، فقط إحسان وليست دوافع طبيعية. هي أعراس ثورة البرجوازية الصغيرة الاجتماعية والاقتصادية، فمن أجل أن تستعيد "العنابية" أموالها تختن أولاد الفقراء. هناك خلفية مزيفة تماما»¹، لعله بذلك يوغل في انتقاد السلطة التي مكنت الطبقة البرجوازية من أن تشرف على صياغة قرارات الدولة، والظهور بمظهر الطبقة الفاعلة في المجال الاقتصادي المؤثرة في التطور الاجتماعي يضيف "وطار": «عرس بغل ولدت كشحنة عاطفية قوية، كنت أقوم بجولة في المناطق الريفية لإنجاز معرض صور للفلاحين الجزائريين، فخلقت في نفسي كل تلك البنايات والمشاريع شعورا عميقا بأنها عرس عقيم، يأتون بأناس من البادية، يضعونهم في قرية طيلة أربع وعشرين سنة ليشاهدوا المهرجان ثم يعودون بهم من حيث أتوا»².

أفليس في ذلك انتقاد للإنجازات التي قامت بها السلطة في فترة السبعينات من القرن الماضي، مدعية أنها ترمي إلى النهوض بالفئات الضعيفة في المجتمع: الفلاحين والعمال.

¹ - بوجمعة بوشوشة، الرواية الجزائرية العربية، أسئلة الكتابة والصور، دار سحر للنشر، ط 1، تونس، ص 20.

² - المرجع نفسه، ص 21.

إنّ "وطار" يعتبر أنها طريقة زائفة مهما وقعت تغطيتها بأصباغ تجميلية: " ما هكذا أراد حمدان أن يقرمط بين الناس، هذه قرمطة زائفة، وطريقة انتهازية للعطاء، وللتلقي، تفوه، تفوه".¹

وهي أصباغ خلفها تتاحر بين المعارضين للثورة الزراعية في محاولاتهم للقضاء عليها من داخل جهاز السلطة، والمتشبهين بها المدافعين عنها دفاعا يمكن القول عنه أنه محتشم. " عدة أسود تتقاتل على جثة فيل، في أي عالم أنا يا ترى ؟ لفحته نسمة أخرى، شعر بشيء من الحيوية تدب فيه، تأمل الأسود والفيل، كانت تصغر تصغر، بدت له نمورا عند جثة بغل، ثم كلابا عند جثة حمار... هذا هو نظام الحياة ... إنه فاسد في أساسه وفي حاجة ملحة إلى حمدان ليقرمط بين الناس وبقرمط، حتى يقيم الألفة، ويذيقهم جميعا طعام الجنة"² لقد انتهى "الحاج كيان" بطل رواية "عرس بغل" إلى هذا الاستنتاج المأساوي.

ويضيف "وطار" في موضع آخر معبرا عن عمق هذا الصراع "إذا كانت المسألة متعلقة بالأتراك، فسأضع حدا للأتراك. نعم وليكن. دعهم يضعفون أولا في محاربة بعضهم البعض، فريق يناصر المستعنين، وآخر يناصر المعتز. كل خلاف رحمة... قبل أن يستتب الأمر لي، وإلا تحول أعداء المستعنين إلى أنصار له".³

إنّ "وطار" يرمز إلى السياسة التي انتهجها بومدين عندما أحاط نفسه بفئات تختلف انتماءاتها، ظلت تتصارع لتفسح له المجال لمزيد من فرض سلطته الفردية.

¹ -الطاهر وطار ، عرس بغل ، موفم للنشر والتوزيع، الطبعة الجديدة، الجزائر، 2004، ص 165 .

² - الرواية ، ص 168 .

³ - الرواية ، ص 136 .

لكن "وطار" يكاد يعلن يأسه إذ أن رأس السلطة « هو صاحب الحق الأول والأخير، أنا لا أنازعه في شيء. ليس من سبقوه أفضل منه. وليس من سيأتي بعده أفضل منه أيضا، الماخور الماخور. والهزي هزي. لقد أعلن المتنبى عن ذلك منذ قرون".¹ وسيظل يقيم هذه الفترة باعتبارها فترة اختلال لموازن القوى، وهو اختلال لا سبيل إلى إصلاحه إلا باعتماد حلول جذرية:

"... أن يكون المرء خليفة، أو سيد أرض، الأمر سواء. هناك الجند، هناك الزنج. الوضع كله فاسد. لن يصلحه خليفة. لن يصلحه دين".²

تلك هي حالة الجزائر التي رمز إليها "وطار" بالعنابية و بحياة النفوس اللتين كانتا تمتهنان البغاء وتعيشان في الماخور، وقد تعتبر شخصية العنابية عن الجزائر، الثورة المستمرة في غياب فعلها، لتعوضها حياة النفوس التي قد يرمز بها "وطار" إلى الجزائر المشروع الاشتراكي، الجزائر الحيرة والخوف تقول حياة النفوس متدمرة: "راسي يا حمود يا خويا راسي، أنا مريضة"³ ورغم الحالة المرضية التي هي عليها تبقى معبرة عن الثورة التي يجب أن تستمر ثورة الجزائر الاشتراكية "هذه البنت حياة النفوس، كلها خير وبركة، فمنذ مجيئها ازدهرت الأوضاع، جميع الأوضاع، لشدة ما تشبهني، إنها نسخة مني يوم كنت في مثل سنها، لولا بعض اللامبالاة والبرودة، لكنها أنا مكررة لكن لا يضير جيل هذا الوقت كله قليل الطموح، بارد..."⁴ هكذا تقول "العنابية" لكن "حياة النفوس" التي سيعرض عليها قروي ساذج الزواج ستسقط في الحيرة وستجبر على ضرورة الاختيار، إنه زمن البحث عن قرارات صائبة وحاسمة

¹ - الرواية، ص 125.

² - الرواية، ص 138.

³ - الرواية، ص 23.

⁴ - الرواية، ص 66.

في الجزائر تتعلق بالشعب الذي كانت مواقفه بشأن الثورة الزراعية متذبذبة والذي عليه أن يشارك مشاركة فعلية في صياغة القرارات المصيرية للبلاد. وإنه لا مأوى للثورة إلا لدى الطبقات الكادحة من فلاحين وعمال، وهو ما يمكن أن يحيل عليه ما يلي: "سرعان ما راجت الإشاعة. حياة النفوس ستتزوج. وجدت عريسا أغنى من قارون. استشارت الحاج كيان، قبل أن تستشير حتى نفسها. قال لها الحاج كيان أسرعي قبل أن يتراجع الرجل خيرها بين السكن في المدينة أو الريف، فلم تجبه. لم تستطع أن تختار. والحاج كيان قال لها. اسكني الأعوام الأولى في الريف... ثم عودي إن شئت إلى المدينة"¹.

ولعله إيمان من "الطاهر وطار" بأن الثورة الحقيقية هي تلك التي تحتضنها الكتل الشعبية الكادحة، وهو إيمان محكوم بأيديولوجيته اليسارية التي يقيم من خلال جميع الممارسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية في الجزائر.

¹ - الرواية ، ص 97 .

البعد الديني:

تدور مجمل أحداث رواية "عرس بغل" حول عينة اجتماعية موجودة في الماخور، تتخذ المأساة فيه أشكالها القصوى من الألم والأحزان لدرجة اليأس هذا العالم الذي يفقد فيه الإنسان كرامته وأدميته، ويتحول إلى سلعة مريحة تعرض للبيع، وقيمتها تتحدد بقدر ما يمكنه أن يجلبه من أرباح طائلة لمالكه فنحن أمام واقع تتبدل فيه كل المفاهيم من معنى إلى معنى آخر، ويمثل هذا المكان المجتمع الجزائري بكل تناقضاته وانعكاساته التاريخية، ومخلفاته الفكرية البائدة، وهذا الوضع الفاسد بحاجة إلى إعادة نظر في نظام الحياة الذي يحكم هذا المجتمع، ولهذا طرحت فكرة العودة إلى مبادئ الإسلام الأولى (الكتاب والسنة)، وإلى مكارم الأخلاق التي سادت المجتمع الجزائري سابقا ولاستعادة كل السمو والمجد القديم الذي فقد في زمن قلت فيه مروءة الإنسان بابتعاده عن الجانب الروحي، وللقيام بإعادة بناء الركائز والأسس لتشييد مجتمع راقي في جميع جوانب الحياة من أجل اللحاق بركب الحضارات الراهنة. وقد مثل هذا الاتجاه في العالم الإسلامي حركات متعددة، منها حركة "الإخوان المسلمين" في مصر، التي تزعمها الشهيد "حسن البنا" رحمه الله، ووجدت لها امتدادات في الوطن العربي كله.

حيث نلاحظ في رواية "عرس بغل" أن شخصية "الحاج كيان" من خلال العديد من الملامح البارزة أنها شخصية دينية مزدوجة التفكير، حيث يعود هذا الأخير مباشرة من جلسات الكيف إلى المسجد، فيدور حوله جماعات من المصلين للاستفادة من علمه، وبعد الصلاة "ينطلق في الترتيل، يرتل الآية على قراءة ثم يعيدها على قراءة أخرى، حتى يرتلها في كل القراءات، لا

يتوقف إلا لأداء الصلوات¹، وبعد هذا " كله ينطلق نحو الماخور"²، وهكذا نستطيع القول بأنها شخصية متناقضة، حتى بعد أن تخلص عن الإيمان بضرورة العودة إلى منابع الإسلام الأولى، واعتناقه لفكرة الاشتراكية العلمية وبحثه عن جذور لها في تاريخ الإسلام ذاته، التي اكتسبها في مرحلة شبابه على يد مشايخ العربية وعلوم الدين، فالحاج كيان تعلم العربية والتجويد والتوحيد وبقية علوم الدين؛ " وللشخصية الدينية في رواية وطار علاقة وطيدة بالثقافة على يد مشايخ الزيتونة أيضا، ويتوقف بالخصوص في العلم بقواعد التجويد وقراءات القرآن المختلفة، ثم يشارك بحماس في الدعوة الإسلامية بادئ الأمر ويواصل الإرشاد والتعليم بعد عودته من كيان رغم التغييرات التي طرأت على الفكرة، فلا ينقطع إطلاقا على الحلقة التي ينظمها أسبوعيا بالمسجد حتى يجتمع المصلون للاستماع إليه والاستفادة من علمه"³.

فشيخ التجويد في هذه الرواية يحاول أن يقيم علاقة مربية مع أحد طلابه في المسجد، وبعد صلاة الصبح "... أمسك شيخ التجويد بيده وقاده إلى سارية بزاوية مظلمة، وراح يعلمه القراءات السبع، يرتل آية على قراءة ويطلب منه أن يقلده، في حين ظل يحتفظ بيده، ويدلكها من حين لآخر، كان أول من يحضر درس التجويد من طريقته بالسنة الثالثة، وكان الشيخ متعلقا به أقصى التعلق، ويؤكد له كل صباح أنه سيكون أعظم مجود على الإطلاق؛ حاول مرة أن ينزع يده من كف الشيخ فنهره قائلا:

– لا تقطع بيننا الصلة الروحية.

¹ – الطاهر وطار، عرس بغل، ص 70.

² – الرواية، الصفحة نفسها.

³ – موسى بن جدو، الشخصية الدينية في روايات الطاهر وطار، دار الشروق للطباعة والنشر والتوزيع، 2008م، ص 223-224.

- منذ ذلك اليوم، تعود أن يترك يده، غير مبال بأصابع الشيخ التي تواصل حركة مربية...¹

وهكذا يتضح الشذوذ النفسي والخلقي والمرضي لشيخ التجويد، كما أنه متعصب ومتسلط، ويظهر ذلك من خلال طرده للطالب الجزائري "الحاج كيان"، لأنه تجراً وسأله سؤالاً غير لائق في نظره، يقول الشيخ الزيتوني عن هذا الطالب الذي سمع صوته ولم يميزه عن بقية الطلبة: "من هذا المعتزلي الكلب، من هذا الكافر الجاحد، من هذا الباطني اللعين، ادع لي القيم العام أيها الجزائري، سأطرده من جامع الزيتونة الأعظم وفروعه، كل فروعه، كل فروعه، أقسم بالله الناطق الفاتق إنه مطرود، مطرود نهائياً"²، حيث يبدو أن هم الروائي الأساسي كشف سلبياتها ونقائصها التي تبرر عدم قدرتها على تغيير نظام الحياة الفاسد كما تدعيه لأن "الحل الجذري الوحيد الذي يخلص المجتمعات العربية والإنسانية كلها حسب هذه الروايات ليس هو المنهج أو الفكر الديني، وإنما هو الاشتراكية العلمية لا غير"³، حيث يقول أن "مصير الإنسانية جمعاء القرمطة"⁴.

كما تظهر شخصية "الحاج كيان" في البداية على أنه طالب زيتوني ذو ثقافة عربية إسلامية حيث "يقوم بنشر أفكاره الدينية المتطرفة بدءاً من الماخور، عملاً بالمقولة التي يطرحها منظرو هذا الفكر"⁵ لكن سرعان ما

¹ - الرواية، ص 27.

² - الرواية، ص 29.

³ - موسى بن جدو، الشخصية الدينية في روايات الطاهر وطار، ص 326.

⁴ - الرواية، ص 95.

⁵ - واسيني الأعرج، اتجاهات الرواية العربية في الجزائر "بحث في الأصول التاريخية والجمالية للرواية الجزائرية"، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ص 558.

تتلاشى أفكاره في مجابهة الواقع بعدما " كان تصميمه قويا " ¹، في " استعادة مجد خالد، الزبير، عقبة، طارق ، وصلاح الدين " ²، وذلك من خلال الخطبة الحماسية التي ألقاها في الماخور فيقول : " يا من هنا، يا إماء الله، أيتها المسلمات، تعالين أحدثكن، أنا صوت الله ، أنا صوت الهدى والرشاد ، تعالين أفقهكن ، وأحدثكن حديثا جميلا " ³.

ويقول أيضا: " يا إماء الله... أنا صوت الله . صوت الإسلام . صوت الإمام حسن... " ⁴ ويضيف قائلا : " إن النهضة الإسلامية يجب أن تكون من صنع جميع المسلمين والمسلمات ، لماذا لا تكن أنتن الطليعة؟ " ⁵ ويكمل خطابه قائلا : " أيتها المرأة لقد خلقت لتكثري أمة محمد ، لتعمري الكون بالمسلمين ، فيتباهى بنا المختار يوم الدين " ⁶.

ومن خلال كلماته الخطابية التي يلفت بها انتباه من في الماخور، تشترك العاهرات على حمله إلى إحدى غرف الماخور وهو لا يزال يخطب: « لقد وعد الله الشهداء بالجنة ، ﴿ لا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾ ⁷.

وتتهف العنابية وهي إحدى العاهرات قائلة: " إلى غرفتي. إلى غرفتي سأريه جنته ، إلى غرفتي . سيعرف رحمة ربه " ⁸، وبعد ذلك " أغلقت الباب

¹ - الرواية ، ص 39 .

² - الرواية ، ص 44 .

³ - الرواية ، ص 43 .

⁴ - الرواية ، الصفحة نفسها .

⁵ - الرواية ، ص 44 .

⁶ - الرواية ، الصفحة نفسها .

⁷ - الرواية ، ص 45 .

⁸ - الرواية ، الصفحة نفسها .

وعادت إليه ، كان مستلقيا مغمض العينين خائر القوى مهزوما ¹ حيث قالت له : "هيا حدثني عن القبور، والآخرة والإسلام" ² ، ويدور بينهما الحوار الكاريكاتوري التالي وهي في أحضانه، تسقيه الكأس تلو الآخر، مما يجعل الصفاء يتصاعد إلى ذهنه، والأشياء تظهر على حقيقتها، هذا الحوار في الرواية نجده في القول التالي " اشرب هذا، اشرب، الدنيا لمن غلب، كانت الجرعة الأولى مرة ، الثانية أقل مرارة، الثالثة كانت عذبة ،تصاعد الصفاء إلى ذهنه، بانث له الأشياء على حقيقتها " ³.

حيث يبدأ الحوار بينهما فيقول لها : "إنك لا تمنعين في الإصغاء إلى ما كنت أقول في البهو .

- أبدا . ما كنت تقول أيها الجميل؟.... " ⁴.

ويستمر الحوار بينهما داخل الفراش، وحينما شعرت العاهرة بسيطرتها على الداعية قالت له: "اسمع عندما تكون واقفا في موضع. على حافة مثلا، ويهوي بك ذلك الجرف، من تلوم؟ هل تلوم نفسك أو تلوم الجرف، أو تلوم من جعله يهوي ؟ ماذا تقرأون في جامع الزيتونة؟ " ⁵.

وبذلك " يدرك وبشكل حاسم، أن التغيير الاجتماعي تغيير للمعادلات العقيمة لا يتم بواسطة الخطب الرنانة ، الطويلة ، بالكلمات المحشوة بالفراغ

¹ - الرواية ، ص 54 .

² - الرواية ، الصفحة نفسها.

³ - الرواية ، ص 55 .

⁴ - الرواية ، ص 56- 57 .

⁵ - الرواية ، ص 57 - 58 .

الكبير، مثلما تعلم في جامع الزيتونة، ولكن عن طريق مراجعة الحقيقة بالحقيقة الأكثر نصاعة، الخالية من الطوباوية المضنية¹.

ويزيد بعدها كأساً أخرى من يد العاهرة التي انسلت من الفراش لتعود له بملابس جديدة، ويغادرها فرحاً بهديتها بعد أن حددت له الأربعاء يوماً أسبوعياً للقائهما، حيث قالت له: "هدية من ابنة بلدك. إنك أثر جرح القلب، فلا تشغل نفسك بالتفكير في أمري، ستزورني كل يوم أربعاء. آهاه"².

وعندما يعترض "زمردة" طريق "الحاج كيان" يتحول ضعفه الشديد إلى قوة جبارة يقضي بها على "الهزي"³ "ارتفع سيف صلاح الدين، كانت إرادة صلاح الدين وحده أقوى من السيف والخصم. هوى السيف، سبقته النار انطلقت النار من الصدر، أحمر السيف قبل أن يمتزج بالدم. النار في صدر صلاح الدين، هوى زمردة... انفجرت رجلاه في الدرج، انفتحت ذراعاه، كان أشبه ما يكون بجلد عنز مبسوط"⁴ وبهذه القوة يقرر العودة إلى العاهرة التي يقع في حبها: "سأعود لزيارتها، سأقهر الجميع. زمردة والعين الزرقاء والإمام حسن، وأبي حسن الأشعري"⁵، الذي ينتهي به الأمر إلى أن يتم بالقتل، وهو في الأساس بريء منها، ويسبب له ذلك أكثر من عشرين سنة سجنًا، "ويكون ذلك كله بمثابة التجربة الفصل بين ما هو كائن، وما يجب أن يكون، وينتقل من العقلية البدائية البائدة إلى عقلية أكثر تفتحاً وأكثر نقاوة

¹ - واسيني الأعرج، اتجاهات الرواية العربية في الجزائر، ص 564.

² - الرواية، ص 59.

³ - الهزي، الفتى القوي الذي يسهر على حفظ نظام الملاهي والحانات.

⁴ - الرواية، ص 60.

⁵ - الرواية، الصفحة نفسها.

وصمود أمام التناقضات الاجتماعية الأكثر تضاربا¹، ويقضي بقية عمره في الماخور الذي تملكه "العنابية" التي أغوته من قبل على تعاطي "الحشيش" ويعيش تحت تأثيره "إرادة عليا"²، حتى إذا ما زال عنه أثر الكيف يعود إلى الماخور يوزع الحكمة والحلوى على العاهرات، وعندما تطلب إحداهن أن تخرجه وتخرج نفسها من عفن الماخور، وذلك من خلال تكوين أسرة شريفة وحياة مستقرة، وأن تحب كغيرها من المخلوقات، فيقول لها في استسلام تام: "يا بنت الناس، إذا كان النبع واحد فلم الجري وراء طعم مغاير للماء، أنت تاجرة هنا أو هناك، وأنا هامشي هنا أو هناك، فلم الخوف أو الجري والجشع في الماخور هنا، أنت جزء من بضاعة كبيرة تباع بالتقسيط، ومن كدس يكبر وينقص، وأنت في الدار، وفي غمرة الحياة الزوجية، مريض بالسرطان محكوم عليه بالسير نحو نهايته، خطوة فخطوة، وبدون أية مقاومة، حتى يفقد الخطوات وينتهي سيره"³، و "إذن فالمشكلة كما يطرحها "الطاهر وطار" جد واضحة، فالشذوذ ناتج عن البدايات السيئة، والنظرة التساقطية وفضائع العلاقات الاجتماعية، وسيادة الفكر التجاري. لا تعمل هذه الخصائص المتخلفة إلا على تأكيد النزوع الإقطاعي المتخلف للعلائق الإنسانية"⁴.

كما أن رواية "عرس بغل" قد انتقدت وضع المرأة في الإسلام، حيث يقول "الحاج كيان": "إن وصفها في الجنة غامض جدا، بل إنه أشبه ما يكون بوصفها هنا. هنا بضاعة تباع بالجملة وبالتقسيط، وهنالك بضاعة تعطى

¹ - واسيني الأعرج، اتجاهات الرواية العربية في الجزائر، ص 559-560.

² - الرواية، ص 13.

³ - الرواية، ص 131-132.

⁴ - واسيني الأعرج، اتجاهات الرواية العربية في الجزائر، ص 572.

بالجملة وبالتقسيط، إنه يبشر المؤمنين بالحرور العين والكواعب الأتراب، ولا يبشر المؤمنين إلا بقطع السكر. كل ما يتعلق بهن يأتي دائما مرتبطا بالرجل وقد يكون بضاعة بائرة، لأن بعض المؤمنين يشتغلون بالولدان المخلدين¹ في هذا القول نجده يقصد ببضاعة تباع بالتقسيط الحياة الدنيا، أما بضاعة تعطى بالجملة وبالتقسيط فيقصد بها الحياة الآخرة، كما يلاحظ أن حياة "الحاج كيان" مرت بمرحلتين:

المرحلة الأولى: وهي مرحلة الدراسة بالزيتونة، وهي المرحلة التي يتبنى فيها المنهج الإسلامي للنهوض بالمجتمع، حيث ينضم إلى تنظيم سري للإخوان المسلمين، ويمكن أن تسمى الفترة القصيرة، أي مرحلة ما قبل كيان².

المرحلة الثانية: وهي الأهم والأطول في حياة "الحاج كيان"، فهي مرحلة ما بعد كيان، والتي يتبنى فيها المنهج الاشتراكي العلمي، ويبحث له في تاريخ المجتمع الإسلامي ذاته، كما تبدو شخصيته مستسلمة راضية بواقعها المر بواسطة الحشيش الذي لا يتوقف عن تعاطيه.

إن الفرد يتأثر بطبيعة المجتمع الذي يعيش فيه، ولكن هذا لا ينفي تأثيره على المجتمع، لأنه لا بد لشخصيته أن تطغى على تلك الظروف القاسية وذلك بتوفره على عقيدة إسلامية متينة تنير طريقه، لأن النجاح الحقيقي في الدنيا يعد نجاحا في الآخرة والعكس صحيح.

¹ - الرواية، ص 40.

² - كيان: غويانا مستعمرة تقع في أمريكا الجنوبية.

حيث يقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾¹.

من هذا يتضح لنا أن رواية "عرس بغل" قد صورت بطريقة فنية حياة الإنسان المنحطة، وتدهورها الشديد في عالم بلا قيم تحكمه القوة، وتسيطر عليه المادة، ابتداء من "الحاج كيان" وزمردة والعين الزرقاء والحمود الجيدوكا وغيرهم، وكل من في الماخور، حين يشيخون وتنتهي صلاحياتهم يعوضون بمن هم أكثر جاذبية، فيدحرجون من أعلى قمة رؤوسهم، أو يبصق في وجوههم، ويرمون خارجا عراة حفاة يحاولون بكل ألم تخبئة ماضيهم الذي يحولهم اجتماعيا إلى مهزلة²

ونفس الشيء بالنسبة لنساء الماخور، فهن داخل عفن واحد، ومستوى مأساوي واحد، يضعن شرفهن في المزادات العلنية.

إن "الطاهر وطار" في هذه الرواية قد استعان بالتراث العربي الإسلامي من أجل معالجة ظاهرة الفساد المنتشرة بكثرة في المجتمع الجزائري بعد الاستقلال، فهي صرخة في وجه مجتمع بلا قيم تحول أفرادها إلى سلع تباع وتشترى وترمى كبقية السلع الأخرى عندما لا يعود لها نفع يذكر، فظاهرة الماخور مثلا لم تسقط من السماء، فلو وجدت علائق اجتماعية حقيقية، وواقع سوي لما وجدت أبدا³.

¹ - سورة الإسراء ، الآية 72 .

² - واسيني الأعرج، اتجاهات الرواية العربية في الجزائر، ص 572.

³ - المرجع نفسه، ص 563 .

البعد الاجتماعي والاقتصادي:

يستعين "الطاهر وطار" في رواية "عرس بغل" بالتراث العربي الإسلامي ليعالج مسألة الفساد المتفشي في المجتمع الجزائري بعد الاستقلال، فيستقدم من العصر العباسي الثاني مبادئ حمدان القرمطي وأفكاره ، يدعو على لسان "الحاج كيان" إلى تطبيق نظام قرمطي يوفر العدالة الاجتماعية كحل لمشاكل الجزائر الاقتصادية والاجتماعية .

تتطلق الرواية من حتمية وجود فساد في المجتمع الجزائري بعد الاستقلال وتطرح الدين كخيار لتقويم المجتمع ؛ "فالحاج كيان" في الرواية شاب زيتوني¹ مفعم الذهن بالخطب والمواعظ الدينية، يتوجه إلى أحد المواخير في منطقته كي يدعو المومسات للعودة على الدين الإسلامي ، مقتديا بالإمام حسن² الذي " هدى الله على يده أكثر من بغي"³ إلا أنه يصطدم بالواقع حين يتعرف على الظروف الاجتماعية البشعة التي دفعت بهؤلاء المومسات إلى ممارسة البغاء . تقول له "عنايبة" كبيرة المومسات في الماخور راوية ظروفها: " دخل السينيغال⁴ المنزل ، حملوا أبي إلى الخارج ، كان يصرخ ، عادوا إلينا وضعوا في عنقه [عنق أخي] حبلا. حمله أحدهم بين يديه. ربط الآخر الحبل بغصن التينة. كانت رجلاه تتخبطان. رغم أنه يكبرني سنتين فإننا أُمي وأبي وأنا نراه جميعا طفلا في الخامسة أو السادسة. كان حينا له أكبر من مليون مرة. ظل يتدلى من التينة طوال الفترة التي كان السينيغال يعتدون علي وعلى أُمي.

¹ - زيتوني : نسبة إلى جامع الزيتونة في تونس ، حيث تلقى "الحاج كيان" علومه الدينية .

² - الإمام حسن البنا : إمام مصري يدعو إلى العودة إلى الكتاب والسنة (الطاهر وطار ، عرس بغل ، ص 31)

³ - الطاهر وطار ، عرس بغل ، ص 31 .

⁴ - السينيغال : عناصر في الجيش الفرنسي .

كانت الفترة طويلة. كنت في الخامسة عشر. أغمي علي. واستفتت وأغمي علي. عندما استفتت أخيرا لم أجد أحدا¹.

أما "حياة النفوس" إحدى أجمل المومسات في الماخور ، فلا تزال تذكر "أباها الذي سافر إلى فرنسا ولم يعد. أخاها المشلول الرجلين الذي يعيل أمها وزوجها.

(ولاتزال تذكر) الليلة التي طلبتها أمها وأمرتها بالنوم في فراشها²

يدرك "الحاج كيان" إزاء هذه المعاناة أنّ هؤلاء المومسات لسن بحاجة إلى من يلقي عليهن المواعظ ، ولكن إلى من يوفر لهن ظروفًا حياتية أفضل فالقضية كما يقول أحمد السرساوي ليست قضية أخلاق بقدر ما هي قضية العلاقات الإنتاجية القائمة التي تفرز مثل هذه الأخلاق³. تقول "عنايبة" في حديث لها مع "الحاج كيان": " هذا كل ما أستطيع أن أوفره لنفسي. فهل تستطيع أنت أن تحقق لي شيئاً؟"⁴. ويقف "الحاج كيان" موقف الحائر حين تضيف "عنايبة" : " اسمع. عندما تكون واقفا في موضع على جرف مثلا ويهوي بك ذلك الجرف ، من تلوم ؟ هل تلوم نفسك أو تلوم الجرف أو تلوم من جعله يهوي ؟ ماذا تقرعون في جامع الزيتونة؟"⁵ فيتساءل "الحاج كيان" بدوره : " أيها الإمام بما تقنع الضالات في المواخير ؟ "⁶

يضع "الطاهر وطار" في رواية "عرس بغل" الموروث الديني المتشدد في مواجهة مع ظروف الواقع المعيشي الصعبة التي يعاني منها الشعب الجزائري

¹ - الرواية ، ص 55 .

² - الرواية ، ص 100 .

³ - أحمد السرساوي ، الطاهر وطار يحكي في عرس بغل تناقضات المجتمع ، صحيفة الثورة ، 7 نوفمبر 1978 .

⁴ - الرواية ، ص 56 .

⁵ - الرواية ، ص 57 . 58 .

⁶ - الرواية ، ص 58 .

بعد الاستقلال، والتي تفرض عليه سلوك طريق الفساد. ويجزم من خلال شخصية "الحاج كيان" بتلاشي الأفكار الدينية المتطرفة والضيقة " حين تقدم على مجابهة تركيبات الواقع المعقدة ¹ معلنا عن إخفاق الدين في تطهير الجزائر من فسادها وفي تقديم الحلول لمشاكلها الاقتصادية والاجتماعية .

ويخلص "الحاج كيان" في الرواية إلى القول بضرورة تطبيق نظام اجتماعي عادل أو على حد تعبيره "قرمطة" المجتمع " فلا صلاة ولا زكاة ولا وعظ ولا إرشاد يؤثر في قلوب الجياع. دينهم العدل ". ومصير الإنسانية جمعاء القرمطة ² إنها دعوة اليساري إلى إقصاء الدين عن المشاكل الحياتية المعقدة ، الاقتصادية منها والاجتماعية ؛ فالنظام الفاسد في نظر "الحاج كيان" لا تصلحه المواعظ الدينية ، بل يقوّمه التخطيط من أجل تطبيق نظام عادل فالمجتمع الجزائري في رأيه في " حاجة ملحة إلى حمدان ليقرمط بين الناس وبقرمط ، حتى يقيم الألفة ، ويذيقهم جميعا طعام الجنة " ³

تأتي دعوة "الحاج كيان" إلى القرمطة نتيجة لتجلياته الصوفية ، فهو يستحضر في جلساته شخصية "حمدان القرمطي" ليدعو من خلالها إلى تطبيق نظام اشتراكي عادل هو بمثابة الجنة على الأرض ؛ فاشتراكية القرن العشرين هي قرمطية العصر العباسي الثاني التي لاقت في عهد حمدان إقبالا شديدا لدى الفلاحين في سواد الكوفة والبصرة ، لما وجدوا فيها من أمل في تغيير ظروفهم الاقتصادية السيئة ؛ فالنظام العادل هو الحل في رأي "الحاج كيان" لمشاكل الجزائر.

¹ - واسيني الأعرج، الطاهر وطار تجربة الكتابة الواقعية، الرواية نموذجا - دراسة نقدية - ، المؤسسة الوطنية للكتاب ،

الجزائر ، 1989 ، ص 101.

² - الرواية ، ص 95 .

³ - الرواية ، ص 168 .

يطرح "الطاهر وطار" هنا أحد المضامين الماركسية دون أن يشير إلى كارل ماركس ، ذلك أنه يصعب على شخصية إسلامية مثل "الحاج كيان" أن تعتنق "الفكر العلمي فكر الملاحدة"¹ في نظر الشيوخ ؛ لذا يعود الوطار إلى التراث الإسلامي ينقب فيه عما يتوافق في الجوهر مع المقولة الماركسية. ويتحدث الكاتب عن هذا المضمون الماركسي في حوار أجرته معه صحيفة تشرين عام 1979 بخصوص رواية "عرس بغل" : " يقول كارل ماركس ما معناه أن العواطف النبيلة ليست هي التي تغير المجتمع ، وإنما الشروط المادية المحيطة به هي التي تغيره. والحالة الثورية لا تتم بمجرد الشعارات بل تتم حسب الأسس المادية المتوفرة في هذا المجتمع أو ذاك "².

يضع "الطاهر وطار" هذا المضمون الماركسي والقرمطي أيضا في مواجهة مع ظاهرة جني المال السريع كوسيلة للخروج من الأزمة الاقتصادية ، فالحل عند "عنايبة" يكمن في جني المال السريع عن طريق إقامة "عرس بغل" تدعو إليه الكثيرين من معارفها شرقا وغربا ، وتجمع فيه الهدايا والأموال من الوافدين ، وهي تقرر أن تتبع التقاليد في أعراس المواخير ، فإما أن تقدم الإعانات للفقراء مقابل ختن أطفالهم أو أن تحج إلى بيت الله الحرام. تقول: "نعم . يجب أن يكون هناك حج أو ختان ، العرس يجب أن يكون له وجه حقيقي "³ ولما كان موسم الحج قد فات لم يبق لها سوى الختان : " نختنهم باسم محسنة "⁴ وهكذا يقول الرجل الموكل بتأمين أكبر عدد ممكن من أطفال الفقراء .

¹ - سعيد الصافي ، الطاهر وطار روائيا ، مجلة الكاتب الفلسطيني ، عدد 3 ، جوان 1978 ، ص 151 .

² - يوسف حسن، الطاهر وطار اللغة الحية وجرأة الكشف والتحدي ، صحيفة تشرين ، 30 ديسمبر 1989 .

³ - الرواية ، ص 80 .

⁴ - الرواية ، ص 81 .

إنّ كلا من الحج والختان يحمل معاني التطهير. ففي حين أنّ الأول يطهر النفوس من ذنوبها ، يطهر الثاني أجسام أطفال بأمر شرعي من الدين الإسلامي ؛ فالتطهير الذي يرمز إلى بداية حياة جديدة ونظيفة ، هو أحد سمات العرس ، إلى جانب سمة العطاء التي نتبينها من خلال تقديم المساعدات للفقراء . فالعنابية في رأينا تسعى إلى التكفير عن ذنوبها حين تقرر إما الحج أو ختن أطفال الفقراء ؛ إلا أنّ فعل التكفير عن ذنوب يترافق في الرواية مع السعي إلى تغيير جذري لوضع المومس الاقتصادي بعد العرس ، ونتبين هنا نزعة الوطار اليسارية ، فالمرء يضل في رأيه غارقا في الذنوب ما لم يتحسن وضعه الاقتصادي .

غير أنّ "الحاج كيان" يرى أنّ مشروع إقامة "عرس بغل" فاشل من أساسه لأنه لا يخدم سوى صاحبه ، ولا يؤمّن للفقراء سوى حسنة مالية ، غير عابئ بالعدالة الاجتماعية التي طالما حلموا بها . إنّ هذا العرس على حد قول سعيد الصافي هو محاولة " لتلطيف حدة الصراع وجعل الواجب مجرد صدقة"¹ والتطهير فيه تطهير مرحلي لا يمحو آثار الماضي نهائيا . فالفقير في هذا العرس سيظل فقيرا ، إنّه مشروع "قرمطة" مؤقتة ينقضي مع انقضاء أولى مراسيم العرس " ما هكذا أراد حمدان أن يقرمط بين الناس ، هذه قرمطة زائفة "².

يقول "الحاج كيان" : فهذا العرس الذي تسعى "عنابية" إلى إقامته لا يتكشف عن أن تغيير جذري في حياة الجماعة ، بل هو في الحقيقة عرس عقيم بدليل تسميته "عرس بغل" ، فهذه التسمية على حد قول الصافي سعيد

¹ - سعيد الصافي، الطاهر وطار روائيا ص 151 .

² - الرواية ، ص 165 .

ترتبط بالأسطورة المنتشرة في المغرب العربي التي تقول : "بأنه عندما تلد البغلة بغلا يكون يوم القيامة قد قرب ، أو تنتهي الدنيا وهو دليل على استحالة تلك الولادة"¹ .

إنّ هذا العرس لن تصاحبه أي ولادة ، ولن يؤدي إلى أي تغيير في الوضع الاقتصادي للطبقة الفقيرة ، بل سيكرس الاستغلال بأن يحصر الثروة بأفراد. إزاء عقم هذا المشروع ، يحتم الطاهر وطار - القرمطي النزعة - عدم إتمام العرس في نهاية الرواية ، مبقيا على الحل الآخر والوحيد الذي يطرحه "الحاج كيان" تحت عنوان "قرمطة المجتمع" ؛ كما يظهر الكاتب انتهازية الإنسان لأخيه عندما تطرح معادلة المال ، إذ يخون "خاتم" "عنايبة" محاولا سرقة الهدايا والأموال التي يقدمها المدعوون في العرس .

يقدم "الطاهر وطار" من خلال شخصية "الحاج كيان" نموذجا عن الجزائري الذي تتقف بثقافة إسلامية ؛ كما يطرح كيفية معالجة هذه الشخصية لمشاكل المجتمع الجزائري ، فالحاج كيان إثر مواجهته للأزمة الاقتصادية والاجتماعية في الجزائر لا يجد سوى مخزونه الإسلامي مرجعا ينقب فيه بحثا عن حل ، ويخلص في النهاية إلى إطلاق الدعوة من أجل نظام "قرمطي" عادل .

يريد الوطّار أن يقول هنا إن الاشتراكية هي الحل الوحيد للخروج من الأزمة ، سواء انطلق الجزائري من منطلق علمي أو منطلق إسلامي ؛ فإذا كانت الذهنية الإسلامية لدى بعض الجزائريين لا تسمح لهم باعتناق مبادئ الاشتراكية العلمية ، فإن تراثهم الإسلامي سيقودهم لا مناص إلى القرمطة التي تتفق في جوهرها مع الاشتراكية .

¹ - سعيد الصافي، الطاهر وطار روائيا، ص 149 .

يقول الوطار في حوار له مع الكاتب الفلسطيني :

" إن "الحاج كيان" - بطل رواية عرس بغل - يحمل كثيرا من صفاتنا نحن المثقفين في الجزائر ثقافة عربية ، فرغم مصادر ثقافتنا الصفراء ورغم غموض واقعنا وتداخل مفاهيمنا ، ننتمي إلى الاشتراكية بكل عنفوان وبنجيز الكثير منها ¹ .

فهذه الجلسات التأملية التي يستحضر خلالها "الحاج كيان" شخصيات من التراث الإسلامي تمثل معاناة المثقف الجزائري عموما والوطار خصوصا، أما من حيث الأسلوب ، فينفذ "الطاهر وطار" في رواية "عرس بغل" من الخاص إلى العام ، فالماخور ليس سوى الجزائر التي غرقت في الفساد بعد الاستقلال والمؤسسات لسن سوى " المؤسسات ² الجزائرية التي ألمت بها ظروف اقتصادية سيئة بعد الاستقلال ، حتمت الانجراف في تيار الفساد .

¹ - سعيد الصافي ، الطاهر وطار روائيا، ص 172 .

² - الرواية ، ص 172 .

البعد التراثي:

يمكن القول بأن الروائي قد استقى مادته من مجتمع واقعي معاش ومجتمع حكائي تراثي غيبي، هذه الازدواجية الإبداعية تشكلت وفق ازدواجية في الانتماء، فالروائي ينتمي إلى مجتمعه الذي يعيش فيه وينتمي إلى تراثه الذي يحن إليه، وهو تراث مثالي يتمتع بقيم عليا يفتقر إليها الواقع الحقيقي في زماننا الحالي ، استدعاها الروائي لانتقاد مظاهر مجتمعه المخالفة لتلك القيم.

إن البناء السوسيونصي للرواية ينطلق من البناء الاجتماعي للواقع المعاش، ويتكى على البناء الاجتماعي للحكاية الخرافية التراثية لأجل انتقاد المظاهر السلبية في المجتمع ، واسترجاع القيم المثالية من المجتمع الخرافي التخيلي، حتى يتم غرسها من جديد في الواقع لغرض التغيير.

يتأسس البناء الاجتماعي لرواية "عرس بغل" على الشخصية "الحاج كيان" فقد ظهرت شخصية طاغية على الرواية بحضورها القوي وقدرتها على تسيير حركة السرد، ولقد غاص الروائي بقدر كبير في واقعه المعاش حينما حاول إضفاء الواقعية على شخصيته المحورية باختيار اسمها أو كنيته ، وكذلك كلامها وتصرفاتها ، كما أنه أضفى على الشخصية بالقدر ذاته صفات وتحركات تجعل من "الحاج كيان" شخصية تراثية فيها من المثالية والخرافية ما يفقده الفرد الاجتماعي الواقعي عادة .

وكشخصية اجتماعية واقعية يظهر في الرواية على أنه طالب زيتوني ذو ثقافة عربية إسلامية " أكون الغمام الثاني هنا . أنشر الدعوة ، على غرار السلف الصالح ، الأشعري ، أو الغزالي ، أو عبد الرحمن بن رستم ، أو غيرهم ، أبدأ التجربة من دار البقاء"¹ .

¹ - الطاهر وطار ، عرس بغل ، ص 39 .

وكشخصية خيالية يظهر "الحاج كيان" من خلال مقاطع قام فيها باستحضار شخصيات تاريخية حملها أقصى حالات الإحباط ، كشخصية "حمدان قرمط" و "المتتبي" بقوله : "ترى من أكون اليوم . المتتبي ، أو حمدان قرمط ، أو زكرويه الدنداني ، أو أحد خلفاء بني عباس أو أحد غلمانهم أو قوادهم"¹ .

كذلك "خولة" كقوله مخاطبا نفسه : "لقد قنعت بها طيفا ، خولة أخت خير أخ وابنة خير أب . لقد تفوقعت على نفسك مرة أخرى ، الأشعري وحسن والمتتبي وطالب التجويد ، ينبعثون فيك من جديد . لا . لقد ماتوا جميعا ماتوا جميعا في جبال بل في الطريق إليه"² فهو ينقل خطابه المأساوي المتماهي في الماضي والصراع والحوارية بين صوته الداخلي عن وعي بقيمة الذات وموقعها من صيرورة التاريخ والكون والإنسان .

ومن توظيفه للتراث أيضا ، أن يلبس الشخصية أثوابا يمكن منحها صفات غيبية ، صوفية ، عجائبية، شعبية... وغيرها من الصفات المأخوذة من شخصيات سردية في التراث ، ففي رواية "عرس بغل" ينقل كلام "الحاج كيان" بثوب الشطحات الصوفية في قوله : " أنت درة لا ترى بالمجهر ، في هذا الهيكل الضخم الذي يسد كل فراغ ، وأنت كل هذا الهيكل ، ما دمت لا تحدد موضعه منك ، فأنت هو وهو أنت ، أنت الجبة والجبة أنت ، وما دمت لا تتحرر منه فأنت لا شيء بالنسبة إليه"³ لقد قام بإغراق رمز الصوفية "الحلاج" في هذا القول الذي يشابهه الكثير في الرواية .

¹ - الرواية ، ص 07 .

² - الرواية ، ص 88 .

³ - الرواية ، ص 11 .

كذلك تظهر شخصية "الحاج كيان" التائه في الحاضر على عتبة الماضين: "... راحت المسافة بين قعر الحق وبين حافات فمه الكبير تتغير شيئاً فشيئاً ... بدت ببعدها الطبيعي حوالي مترين أو يزيد، ثم تأخر الفم بعد النفس الأول عدة أمتار. بعد النفس الثالث تأخر القعر ، بعد النفس الخامس تأخرت التينة والصخرتان، والحاج كيان وسلته . بعد ذلك راحت كل المسافات تتباعد ، وانفتحت في رأسه وقلبه هوتان لا أول ولا آخر لهما . وفي الحين الذي شعر فيه بالتلاشي والذوبان شعر بأنه يحتل كل ما هنالك من مكان وزمان"¹.

هذه الشهادة على حالة نفسية عميقة يعيشها البطل وهو في حالة غثيان أو لاوعي جراء تعاطي "الحشيش" ، مما أضفى على الخطاب صفة العجائبية، واللامعقولية ، وكأنه فن شعبي خرافي عجائبي نبع من عمق الجماعة الأصلية ، وأضفى على البطل صفة الأسطورة والصوفية ، وهو ماجعله بطلاً من أبطال "ألف ليلة وليلة" ، وهذا ما جسده "الطاهر وطار" بصورة قوية ، واصفاً الحالة التي آل إليها "كيان" وهو يتدرج في الارتفاع عن الواقع والمعقول ، أو يتحدر في التلاشي والضياع : " بسرعة، انضم الهيكل العظمي إلى إخوانه. ارتفعت قرقرة كبيرة. هياكل تتحرك. إنها ترقص. أرقص معها. لا بد من ذلك. رقصة الهياكل لا تكون إلا جنونية، موسيقى الفراغ لا تكون إلا صاخبة ، انطلق انطلق. إنها تتناطح. افعل مثلها ، انطح من صадفك ، انطح بقوة ، لا شيء يؤلمك ، الديدان انتزعت الألم. اصفع باليدين كل من تستطيع. أعط خدك للصفع ، إنهم يفعلون ذلك. هذا العالم يتحرك بلا قوانين أو دوافع أو رغائب ، فانطلق. انطلق في استسلام ، وليرتفع الصخب

¹ - الرواية ، ص 08 .

ولتعل القرقرة... انتظر ما سيكون. إنها تتصل ببعضها. الأرجل تتصل
الفخذان يلتحقان . العجز أيضا ، الصدر بدوره ، العنق ، الرأس. الهيكل
الجبار يتكون " ¹ .

أما بالنسبة لأحداث الرواية وتقدمها وتواليها ، فقد جاءت بطريقة تصويرية
عن حياة عادية واقعية وأحداث قد تكون حقيقية. يتجلى ذلك من خلال الكلام
المتداول بين الشخص (العنابية ، حياة النفوس ، حمود الجيدوكا خاتم....)
والأماكن (الماخور ، المقبرة ، المسجد) وكذا تعاقب الزمن بين الليل
والنهار ، وكذلك صفات عجائبية على الشخص (الهياكل ، الجنية....) هذا
الواقع الاجتماعي المصور ضمن البنية السوسيونصية للرواية ببنية نصية
تراثية استقى الروائي مادتها من سرد ألف ليلة وليلة الخيالي يضيف واقعا
تخياليا أراد الروائي من ورائه الانتقاد والتغيير لا محالة.

¹ - الرواية ، ص 10 - 11 .

البعد التاريخي:

اختار "الطاهر وطار" عنوان "عرس بغل" لأحد أشهر أعماله الروائية المعبرة عن آمال وآلام الجماهير ، والمجسدة لتناقضات المجتمع بما يحمله من نزاعات ومشاكل اجتماعية وأخلاقية ، وكذا هموم الفرد البسيط والمتقف على حد سواء ؛ لقد مثلت الرواية الانعكاس التاريخي بأحداثه وظواهره الاجتماعية الحاملة لتناقضات المجتمع الداخلية ، وهذا ما عبر عنه القانون الأساسي الذي ارتضاه "وطار" محورا لروايته حفل زفاف البغل ، إذ يقول على لسان بطل روايته "الحاج كيان" : " كل الأعراس عرس بغل ، ولا داعي للهروب منها ، هذا هو نظام الحياة ، إنه فاسد في أساسه ، وفي حاجة ملحة إلى حمدان ليقرمط بين الناس ويقرمط ، حتى يقيم الألفة ، ويذيقهم جميعا طعام الجنة ¹ .

لقد استجاب التاريخ بشخصياته الخالدة عبر الأزمنة لمبدع الرواية ، فها هي شخصية "حمدان قرمط" مؤسس دولة القرامطة تحاول أن تتدخل من أجل إصلاح مجتمع اليوم ، بتحقيق العدل وبتر الظلم ؛ استدعته الذاكرة الجماعية الحاملة لهموم الأمة والباحثة في شفافها من أسقامها ،وقد تم هذا الاستدعاء بعد تمعن الكاتب في آثار الماضي ، والنظر في إنتاجيتها وإمكانياتها ومدى ملاءمتها و حركيتها في الزمن الحاضر من خلا سرده الروائي التاريخي ، ذلك أن " الماضي التاريخي هو عامل ذهني ، يستتبط في كل لحظة من الآثار القائمة ، أو بعبارة أخرى موضوع التاريخ هو الماضي الذي هو الحاضر ² .

¹ - الطاهر وطار ، عرس بغل ، ص 168 .

² - عبد الله العروي ، مفهوم التاريخ ، المركز الثقافي العربي ، ط1 ، بيروت ، 1992 ، ص 38 .

من هذا المنطلق اختار "الطاهر وطار" لروايته زاوية خاصة ، ينظر من خلالها إلى التاريخ بعين الحاضر المؤلم الباحث عن يحدث التغيير ، ولهذا نجد أن رواية "عرس بغل" تتعامل مع التاريخ "بوصفه جزءا من وعي الشخصيات ، ولا سيما كشخصية "الحاج كيان" التي مرر الكاتب من خلالها ما يريد قوله بشأن الماضي عموما ، والتاريخ بشكل خاص ¹ .

كما نجد بأن البطولة في الرواية لا تتجلى من خلال مواقف الشخصية البطل "الحاج كيان" داخل مجتمعه الروائي ، وإنما من خلال وعيه الذاتي الذي عززته اللحظات التي يتناول فيها "الحشيش" ويغيب عن عالمه الواقعي ثم يتعمق في التاريخ عبر أزمنته الماضية وشخصياته وكذا زمن الحاضر بتناقضاته وإفرازاته ، وبين الزمنيين يحدث إسقاطات يصل من خلالها إلى خيبة أمله إزاء الحاضر وإخفاقاته .

يظهر "الحاج كيان" بطل الرواية شخصية إسلامية منحرفة اجتاحت عوالم الشهوات حتى تكشف عن إنسان الواقع المرير الذي أصبح سلعة سوقية تباع وتشترى ، فيقول : " لا شيء رديء في هذا العالم ، إلا ما ليس له قيمة تجارية " ² .

لقد مثل "الحاج كيان" نخبة المجتمع التي تحاول اجتياح الواقع وتغييره ، لكنها تعجز في كل مرة أمام استحالة الرغبة في الخضوع والعودة إلى الرشاد والإصلاح ، يقول "الطاهر وطار" كاشفا عن عوالم "عرس بغل" الحقيقية " في عرس بغل لجأت إلى الرمز ، أو إلى المعادل الفني لواقع لا يمكن أن أعبر عنه إلا بهذا الأسلوب ، أردت أن أقول أن ما يجري في العالم النامي على يد

¹ - محمد رياض وتار ، توظيف التراث في الرواية العربية ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، 2002 ،

ص 127 .

² - الرواية ، ص 164 .

البرجوازية الصغيرة من توارث ليس سوى عرس بغل عقيم ، الفائدة منه هو إقامة العرس ، وليس الزواج ¹ وقد جاء في الرواية ما يترجم هذا التصريح كالكلام الذي قيل على لسان "العنابية" : "... نسيت العادات والتقاليد يا الحاج كيان ، عرس بغل ، ستحضر عنابة وقسنطينة وسطيف والأغواط والجلفة والأصنام و مليانة ، هذه جميعا شاركت في أعراسها بأجمل البنات اللاتي كن في محلي ، وبكل الأعيان الذين كانوا في قبضة يدي ، علينا أن نتصل بالجميع ، من الشرق إلى الغرب ، وستكون المشاركة في عرس بمحل ذي ستة أبواب..." ²

من خلال هذا العرس استطاع "الحاج كيان" أن يجمع بين الماضي والحاضر، بين شخصية "خاتم" الذي يحاول سرقة الأموال التي جمعت في العرس ، والمتنبى الذي يراه لئىما خاوي النفس ، سارقا وماديا حينما تخلص عن قرمطيته واستخدم شعره لمحاربة القرامطة ، يقول موجهها كلامه إلى "حياة النفوس" إحدى العاهرات التي جذبتة إلى عالم الشبهات ، وقد تصورهما "خولة اخت سيف الدولة" : "... كن لئىما، خاوي النفس ، لم تكن عيناه تستقران في مكان واحد . ما كان المتنبى يقوى على التحديق في شيء حتى ذاته لم يكن يحدق فيها... هو ذاك إذن يا خولة . لو لم يكن نذلا لحافظ على قرمطيته ، على الأقل ما كان يوجه له الشتم " ³ .

إن مفهوم الخيانة حسب وجهة نظر "الحاج كيان" يبقى ثابتا بين الحاضر والماضي ، فما حدث أيام القرامطة من نزاعات وخلافات نشبت بين القادة بسبب الخيانات ، يحدث اليوم أيضا في واقعنا المعاش مما أدى تشتت الأمة

¹ - إدريس أبو ذبيبة ، الرؤية والبنية في روايات الطاهر وطار ، دراسة نقدية، ط1 ، 2000 ، ص 212 .

² - الرواية ، ص 79 .

³ - الرواية ، ص 91 .

وذهاب ريحها ؛ ولأجل ذلك تحتاج الأمة اليوم إلى من خلصها بالأمس سادة وقادة أمثال "حمدان قرمط" الذي حاول أن ينشر العدل والمساواة ، يقول "الحاج كيان" : " إملئوا الدنيا عدلا ، كما ملئت جورا ، أنتم النور والنور أنتم أنتم الحقيقة الكبرى والحقيقة الكبرى أنتم ، قرمطوا ما وسع الأسياد وفقهاء السوء بين الناس "¹، فالروائي يرصد لنا بعضا من جوانب الواقع المعاش المؤلم ويحاول معالجته ، و ذلك باستعمال أسلوب التحفيز واسترجاع تاريخ القادة والسادة الذين حاولوا أن ينشروا العدل والمساواة .

¹ - الرواية ، ص 93 .

البعد الثقافي:

يظهر البعد الثقافي من خلال رواية "عرس بغل" في هذه المقاطع التي كانت تزدّد على لسان البغايا في الماخور:

"أنا قليلة والي .. أحبابنا يا عيني رحنا وراحو عنا"¹.

"وأنا الوحداينة ، أنا قليلة والي"².

"رحنا وراحوا عنا من ... عيني يا عيني"³.

"أنا البرانية ، وأنا قليلة والي ، أحبابنا بالروح"⁴.

"وأنا أنا الوحداينة ، أنا قليلة والي"⁵.

"أرواح ، أرواح .. وكي نشوفك نرتاح"⁶.

"يا عين الكرمة ، وأعطيني الأخبار"⁷.

"يا جاري يا حمود ، يا جاري دبر علي ، الناس تبات رقود ، وأنا النوم

حرام علي. يا عمي الخياط خيط لي جبة سورية"⁸.

ومثلما لم تطرح مسألة اللغة العربية في الرواية بشكل جلي ، لم تقع الإشارة إلى اللغة البربرية ، لكن رأي وطار بشأنها لا يمكن تجاهله باعتبار أنه من ناحية بربري الأصل ، ويعتبر البربرية جزءا من التراث الجزائري لا يمكن تجاهله ، ومن ناحية أخرى اعتباره ذا تكوين عربي زيتوني .

¹ - الطاهر وطار ، عرس بغل ، ص 17 - 18 .

² - الرواية ، ص 20.

³ - الرواية ، ص 21 .

⁴ - الرواية ، ص 22 .

⁵ - الرواية ، ص 34 .

⁶ - الرواية ، ص 36 .

⁷ - الرواية ، ص 66 .

⁸ - الرواية ، ص 68 .

أما شخصية "الحاج كيان" في "عرس بغل" فيمكن القول إنها تختزل جميع أوجه الإنسان الجزائري الثقافية من الثورة وزمن الاستقلال وما بعده ، فهي شخصية ذات أبعاد وتوجهات مختلفة ، فالحاج كيان تعلم في الزيتونة وتأثر بالثقافة العربية الإسلامية التي وجهته وجهة إسلامية قبل أن يسجن في "كيان" ، وقبل أن يخوض السياسة ، يقول : " كان تصميمه قويا . أكون الإمام الثاني هنا ، أنشر الدعوة على غرار السلف الصالح ، الأشعري أو الغزالي أو عبد الرحمن بن رستم أو غيرهم . أبدأ التجربة من دار البغاء ، يجب أن أفهم ذاتي ، قبل أن أقهر غيري . من لم ينتصر على نفسه لن ينتصر على غيره....¹ ، لكن هذه المواقف ستتغير بعد خروجه من السجن ، وبعد أن يعثر على العنابية (التي ترمز إلى الجزائر) التي قاده حبه لها إلى الوقوع في شرك السجن " ظل يحلم خمسا وعشرين سنة ، بلياليها وأيامها ، وعندما عاد ، لم يجد إلا اسمها أو فضلها ، وهو لا يزال ينتظر عودة البنت التي حملته من رجله مستعينة بزميلاتها إلى غرفتها ، وشقت قلبه بعينيها الجميلتين وضعت فيه حبها ، استطاعت أن ترزعزع جامع الزيتونة بسواريه و مشائخه وبفقهه ونحوه وصرفه وتجويده ، وتحوله إلى هزي يحج إلى كيان² وهذا التغيير الذي طرأ على شخصية "الحاج كيان" يظهر فيما يلي :

« ترى من أكون اليوم؟ المتنبى؟ حمدان قرمط؟ زكرويه الدنداني؟ المعتصم المنتصر؟ موسى بن بغا؟ وما يهم ... ليس في الجبة سواي ... سوى رحي تدور في حجم الأرض تطحن والألم يقطر»³.

¹ - الرواية ، ص 39 .

² - الرواية ، ص 85- 86 .

³ - الرواية ، ص 08 .

يمكن القول أن النص الروائي للطاهر وطار قد أبرز دور النخبة في المجال الثقافي الجزائري ، وقد تم ربطه أساسا بمسألة تطبيق المشروع الاشتراكي الذي لم يكن محل إجماع جميع الفئات ، وقد لعبت فيه نخبة قليلة دورا أساسيا في دعم الثورة الزراعية وواجهت القوى المعارضة لها .

البعد النفسي:

تدور مجمل أحداث رواية "عرس بغل" حول فئة من المجتمع تنتمي إلى عالم ضيق، تعيش فيه حياة خاصة. دفعتها إليها ظروف الحياة القاسية، وهي بعيدة عن المجتمع لكنها على علاقة بكل فئاته، هذه الفئة التي يغلب عليها العنصر النسوي المغلوب على أمره، والمنظور إليه من قبل المجتمع نظرة احتقار وتذليل، ذلك كونها تقتفي قوت يومها مقابل لذة تمنحها لمن يطلبها والذي يدفع أكثر من غيره.

وتعتبر شخصية "الحاج كيان" هي المحركة لأحداث الرواية، الذي حاول تجاوز مظاهر الفساد واختلال الموازين في المنظومة القيمية للمجتمع وتكرار التفاصيل اليومية وآثارها النفسية والذهنية عبر آلام وفواجع، يدفعه كل ذلك إلى الشعور بحالة التوحد والغربة القاتلة والألم والحزن لدرجة اليأس يقول: "لا. كن أنت. كن أنت. فليس هناك سوى الرحى، ذات الفكين المتعاكسي الدوران تطحن القلوب وتفرز الألم.

- ومن أنا ؟ هل أنا شيء ؟ هل أستطيع أن أكون مرة أخرى؟

- أنت الإرادة العليا . العليا .. عليا"¹.

لنتعرف أكثر على شخصية "الحاج كيان" فهو متدين درس في الزيتونة دخل الماخور لنشر أفكاره الدينية المتطرفة عملاً بالمقولة التي يطرحها منظر هذا الفكر، إلا أن أفكاره تتلاشى في مواجهة واقع مليء بالتناقضات وهو رجل عاش بعمق ويرفض أن يعيش حاضره بخواء² كما أنه نفي إلى "كيان" بسبب جريمة لم يقتربها، وبعد عودته من المنفى يتوجه إلى "العنابية"

¹ - الطاهر وطار، عرس بغل، ص 14.

² - واسيني الأعرج، اتجاهات الرواية العربية في الجزائر، ص 558.

صاحبة الماخور ، يظل إلى جانبها يحميها ويساعدها ، ويصبح محبوباً من طرف المومسات اللواتي يشتغلن به ، ومن هنا تعرف على عالم التعاسة والشقاء والاستغلال بكل أشكاله المختلفة ، وأن المومسات لم تختزن هاته الحياة ولكنهن مجبرات على مجابهة واقع مفروض عليهن.

" ويظل الحاج كيان وسط هذا العالم المتناقض يمثل الصلة، الألم، الحلم الخيط الرفيع الرابط بين عالمين خارجي وداخلي، ومن خلاله تعيش كل شخصية بصورة مدمية وتعيش معه لحظات إنسانية من الصراع العنيف... لحظات الحب، الممارسة بشراسة وسط القتل والحالات النفسية المهووسة، ووسط ألوان من العقد النفسية الموروثة عن الماضي وعن الحاضر الذي لا يعلم إلا الموت البطيء ¹ منهم "العنابية" التي تدير الماخور، تخاف الشيخوخة، تحمل في ذاكرتها ماضٍ أليم نتيجة اغتصابها وهي في سن الخامسة عشر من طرف السينيغال ، منبوذة اجتماعياً ومنهارة نفسياً، وغير سوية في علاقاتها الجسدية إذ أصبحت تتاجر بالجسد مقابل المال؛ كذلك "حياة النفوس" هي فتاة عانت البؤس والشقاء نتيجة هربها من البيت بسبب زوج أمها الذي طلب أن تنام معه في فراش واحد؛ وأيضاً "حمود الجيدوكا" هو رجل طيب القلب، قضى أكثر من نصف حياته في الأعمال الشاقة بسبب تهمة ملفقة، فقد أحب امرأة داخل أحد المواخير وأراد أن يتزوجها ويخرجها من تلك الحياة، وتقع بينهما مشاحنة فيصفعها وتسقط على الدرج فتموت وبذلك يكون قد وقّع على صك الموت البطيء؛ وخاتم الهزي الذي يعاني من أمراض نفسية كثيرة .

¹ - واسيني الأعرج ، اتجاهات الرواية العربية في الجزائر ، ص 559 .

إن كل تلك الشخصيات التي ارتكزت عليها الرواية تعبر عن الخلل الموجود في مجتمعنا، فالعنايية ليست إلا امرأة مهمومة فقدت كرامتها ومروعتها متجاوزة لطابو المحرم الديني والأخلاقي؛ و "الحاج كيان" مجرد سجين يحمل على جبهته خاتم الظلم الاجتماعي¹، و "حياة النفوس" ليست سوى بضاعة يشتريها من يشاء، و "حمود الجيدوكا" على الرغم من مهاراته فهو نهاية إنسان فاشل، و "خاتم الهزي" : "وجه آخر للظلم تارة وللتمرد على القوانين الوضعية تارة أخرى ، وحتى اسمه يحمل دلالات اجتماعية معينة فهو وجه من وجوه التزوير للوصول إلى الهدف ، لمواجهة مجتمع مزور في جوهره"² .

¹ - واسيني الأعرج، اتجاهات الرواية العربية في الجزائر ، ص 561.

² - المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

المقدمة

الخاتمة:

بروايتين جزائريتين بدأت رحلتنا، وعلى روائي عبقري رست سفننا، وفي دروب المجاهيل غاصت أقلامنا ودفاترنا، وبعد هذه الرحلة في أرجاء الروايتين وبعدهما الإيديولوجي، خلصنا إلى مجموعة من النتائج، ولعل أهمها:

1 - ارتبطت الرواية بالإيديولوجيا منذ ظهورها، والعلاقة بينهما في غاية الأهمية لأنها تتيح لنا فهم النص الروائي في علاقاته الداخلية، وارتباطاته الخارجية السوسيولوجية .

2 - لقد اهتم وطار بالمكون الإنساني والاجتماعي المليء بالنقائص والتغيرات باحثا عن طرائق تجاوزه كإيقاظ الضمير الجمعي، لأن التغيير إلى ما هو أفضل حلم الجماعات المحرومة في المجتمع، فهذا الاهتمام دفع بوطار إلى استثمار بعض التقنيات الروائية لخدمة المنظور الإيديولوجي، كالشخصية الحكائية التي لا تعود قيمتها الفنية إلى موقعها الاجتماعي التاريخي، بل قدرة إلى المؤلف وذكائه في تحديد ملامحها المعنوية والإيديولوجية .

3 - يصرح الكاتب "الطاهر وطار" بأن "رمانه" تمثل القضية، فلا يترك بذلك مساحة كبيرة للتأويل، فقد حاولنا ألا نخرج من الإطار الإنساني للقصة، وندخل الإيديولوجيا المباشرة، وبقيت "رمانه" هي الفتاة الطموحة البائسة كما هي القضية.

4 - يبين في رواية "رمانه" العلاقة الموجودة بين المجتمع والسلطة، ودور المرأة في العمل السياسي في فترة السبعينيات، من خلال نموذج "رمانه"، وحقيقة الوضع الاجتماعي في علاقته بمختلف المسائل المطروحة.

5 - نجح الكاتب أيضا في استخدام عنصر الجنس الذي تعددت مشاهدته وتناثرت داخل الرواية "رمانه" ، حيث اعتمد على شخصية فتاة فقيرة تدعى

رمانة ،قذفها وضعها الطبقي المتردي إلى ممارسة البغاء ،فقد وزع مشاهد الجنس على صفحات الرواية توزيعاً خدم بناء هذه الرواية ،واتخذت منه وسيلة للتعبير عن أزمة الإنسان الوجودية، وأداة لتجسيد الكثير من معاني الحياة الاجتماعية والنفسية أكثر مما اتخذته وسيلة للتعبير عن العلاقة بين الرجل والمرأة.

6 – تعبر رواية "عرس بغل" عن فترة حرجة من تاريخ الجزائر، وهي فترة السبعينات من القرن الماضي، التي ميزتها تناقضات كثيرة على المستوى السياسي والاجتماعي .

7 – استخدم "الطاهر وطار" في رواية "عرس بغل" الدين لمعالجة مسألة الفساد المتفشى في المجتمع الجزائري بعد الاستقلال دون جدوى، إلا أنه لا يمكن التغاضي عن دوره في دعم البناء الروائي، أو نفي حقيقة حضوره الجمالي فيها.

8 – ينتقل في رواية "عرس بغل" من البطولة الجماعية (الوعي الجمعي) إلى البطولة الفردية، التي تتواجد في ذاتية شخصية "الحاج كيان"، وليس كموقف من المجتمع، يكون لنفسه عالماً خاصاً به عندما يتردد على المقبرة ، ويعيش عزلة واضحة عن وسطه الاجتماعي في بحثه الدؤوب عن الحقيقة ،يحاور الموتى بواسطة استحضر بعض الرموز التاريخية كالمعتصم، المنتصر ،خولة أخت سيف الدولة ،وغيرهم.

9 – يستفيد "الطاهر وطار" من التراث ،ففي رواية "عرس بغل" يستخدم التراث العربي الإسلامي .

10 – اعتمد "وطار" في الرواية على مجموعة من الأدوار الفنية المتنوعة كالوصف الحي ،الحديث النفسي،الحوار المشحون بالتوتر والقلق ،التحليل النفسي استلهام التاريخ ،وعناصر التراث الشعبي كالأمثلة ،الأغاني ،الأجواء

الشعبية والصراع الدرامي التراجيدي؛ وكشفت بهذه الأدوات الفنية المتنوعة المآسي والمصائر المحزنة، التي ينتهي إليها أبطال الرواية، حيث أن " عنصر المخدرات كان يعد الخيط الرفيع في الرواية، وهي لفحة ذكية من الروائي ساعدته على إعطاء أبعاد درامية للمواقف والأحداث والشخصيات، التي كانت كلها تتفاعل وتتصارع، وهي حالة فقدان للوعي والذات ... بل كانت هي المحرك الأساسي للرواية"¹.

11 - لقد اعتمد "الطاهر وطار" في نقد الطبقة البرجوازية على الرمزية، وخاصة فيما يتصل بالمرأة باعتبارها مرادفا للجزائر في فترات الحيرة والاضطراب وذلك في روايتي "رمانة" و"عرس بغل".

12 - نستنتج أن الثورة الجزائرية في نظر الكاتب لا تنتهي مع إعلان الاستقلال بل تستمر ما دام الشعب لم يحقق العدالة الاجتماعية المنشودة، فهو يتوجه توجها يساريا، في رواية "رمانة" يدعو إلى تبني اليسار، وفي رواية "عرس بغل" يدعو إلى القرمطية.

13 - إن الروائي "الطاهر وطار" يبقى من أبرز المبدعين الذين حاولوا أن يقدموا الأفضل للفن الروائي باستحداث التقنيات وأشكال حداثية قد تسهم في تطوير هذا الجنس المنفتح على كل الفنون والخطابات من جهة، وتؤصل الرواية الجزائرية من جهة أخرى، ويمثل إنتاجه بمثابة مرآة تعكس صورة الجزائر من الخمسينيات حتى مطلع التسعينيات .

¹ بشير بو يجرة محمد، الشخصية في الرواية الجزائرية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1970-1983، ص

قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم.

المصادر:

1- الطاهر وطار:

- رمانة، موفم للنشر والتوزيع ، الطبعة الجديدة، الجزائر، 2004 .
- عرس بغل، موفم للنشر والتوزيع ، الطبعة الجديدة، الجزائر، 2004 .
- الطعنات، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر .

المراجع:

2- إبراهيم عباس:

- الرواية المغاربية " تشكل النص السردي في ضوء البعد الإيديولوجي " ، دار الرائد للكتاب ، ط 1 ، الجزائر، 2005 .
- الرواية المغاربية " الجدلية التاريخية والواقع المعاش ، دراسة في بنية المضمون " ، منشورات المؤسسة الوطنية للاتصال النشر والإشهار، الجزائر، 2002.
- 3- إدريس أبو ذبيبة:
- الرؤية والبنية في روايات الطاهر وطار، دراسة نقدية، ط1، 2000.
- 4- بشير بو يجرة محمد:
- الشخصية في الرواية الجزائرية ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1970 - 1983.

5- بوجمعة بوشوشة :

- الرواية الجزائرية العربية، أسئلة الكتابة والصورورة ، دار سحر للنشر ، ط 1 ، تونس.

6- سيد البحراوي:

- علم اجتماع الأدب ، دار نوبار للطباعة ، ط1 ، القاهرة، 1992.
- 7- شكري عزيز الماضي:
- محاضرات في نظرية الأدب، دار البحث للطباعة والنشر، ط1، 1984.

- 8- طه وادي:
- الرواية السياسية ، الشركة المغربية العالمية للنشر والتوزيع ، لونغمان ، ط1 ، القاهرة، 2003.
- 9- علال سنقوقة :
- المتخيل والسلطة، رابطة كتاب الاختلاف، ط 1، الجزائر، 2001.
- 10- عبد اللطيف عبادة :
- اجتماعية المعرفة الفلسفية، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط1، الجزائر، 1984.
- 11- عبد الله العروي :
- الإيديولوجيا العربية والمعاصرة، المركز الثقافي العربي، ط 2، المغرب، 1999.
- مفهوم الإيديولوجيا، المركز الثقافي العربي، ط7، المغرب، 2003.
- مفهوم التاريخ، المركز الثقافي العربي، ط1 ، بيروت ، 1992.
- 12- علال سنقوقة :
- المتخيل والسلطة، رابطة كتاب الاختلاف، ط1، الجزائر، 2001.
- 13- عمار بلحسن :
- الأدب والإيديولوجيا، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.
- 14- عمرو عيلان :
- الإيديولوجيا وبنية الخطاب الروائي، منشورات جامعية، ط1، الجزائر، 2001.
- 15- لينة عوض :
- تجربة الطاهر وطار الروائية بين الإيديولوجيا وجماليات الرواية ، أمانة عمان الكبرى ، 2004 .
- 16- محمد رياض وتار:
- توظيف التراث في الرواية العربية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2002.
- 17- موسى بن جدو:
- الشخصية الدينية في روايات الطاهر وطار، دار الشروق للطباعة والنشر والتوزيع، 2008م .
- 18- مشري بن خليفة:
- سلطة النص ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ، ط1 ، 2000 .

19- نزيه أبو نضال:

- التحولات في الرواية العربية، المؤسسة العربي للدراسات والنشر، ط1.

20- واسيني الأعرج:

- اتجاهات الرواية العربية في الجزائر، بحث في الأحوال التاريخية والجمالية للرواية الجزائرية، المؤسسة الوطنية للكتاب 3، الجزائر.

- الطاهر وطار تجربة الكتابة الواقعية، الرواية نموذجاً، دراسة نقدية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989.

مراجع أجنبية مترجمة:

22- روزنتال . م . و يودين . ي :

- الموسوعة الفلسفية، ترجمة: سمير كرم، دار الطليعة، ط 1، بيروت ، 1974.

23- لوكيوس أبوليوس :

- الحمار الذهبي ، ترجمة : أبو العيد دودو ، منشورات الاختلاف ، الجزائر.

المجلات والدوريات:

24- أحمد السرساوي:

- الطاهر وطار يحكي في عرس بغل تناقضات المجتمع، صحيفة الثورة، 7 نوفمبر 1978.

25- سعيد الصافي:

الطاهر وطار روائياً، مجلة الكاتب الفلسطيني ، عدد 3، جوان 1978.

26- صلاح مختار:

- العلاقة بين الإيديولوجيا و الاستراتيجية، مجلة دراسات عربية، جوان 1973 ، ع 8.

27- الطيب بودريالة والسعيد جاب الله :

- الواقعية في الأدب ، مجلة العلوم الإنسانية ، جامعة محمد خيضر ، بسكرة ، عدد 07 ، 2005.

28- يوسف حسن :

- الطاهر وطار اللغة الحية وجرأة الكشف والتحدي، صحيفة تشرين، 30 ديسمبر 1989.

- Khayma.com/Wattar/lire/test pat/alquds20% newspaper . hg.
http://www.

فهرس الموضوعات

المحتويات	الصفحة
شكر و عرفان	
مقدمة	أ-ب-ج
مدخل: الإيديولوجيا من النشأة إلى التجسيد	
- نشاء المفهوم وتطوره	05
- علاقة الأدب بالإيديولوجيا	11
- الرواية والإيديولوجيا	12
الفصل الأول: البعد الإيديولوجي في رواية "رمانة" للروائي الطاهر وطار	
- البعد السياسي	18
- البعد الجنسي	24
- البعد الاجتماعي و الاقتصادي	28
- البعد الثقافي	33
- البعد العاطفي	36
- البعد النفسي	38
الفصل الثاني: البعد الإيديولوجي في رواية "عرس بغل" للروائي الطاهر وطار	
- البعد السياسي	41
- البعد الديني	45
- البعد الاجتماعي والاقتصادي	54

61	- البعد التراثي
65	- البعد التاريخي
69	- البعد الثقافي
72	- البعد النفسي
67	الخاتمة
	قائمة المصادر والمراجع
	فهرس الموضوعات
	ملخص بالعربية
	ملخص بالفرنسية

ملخص البحث:

عاشت الرواية الجزائرية في فترة السبعينات وما بعدها مرحلة مهمة خُطت بنوعية الكتابة درجات أكدت من خلالها وجود وعي ذاتي وجماعي، وقد كان هذا الوعي أساس الصراع السياسي، الاجتماعي، الاقتصادي، والثقافي... الذي اصطبغت به الكتابات الروائية عند الطاهر وطار، واسيني الأعرج، وغيرهما ولم يكن تشكيل الصراع الإيديولوجي الحامل لهموم المثقف الجزائري من خلال الرواية نظرة تبسيطية مناقشة ومحالة، وإنما استدعت الوعي الخاص اتجاه أحداث مخاض الكتابة الجديدة.

إن الرؤية الواعية اتجاه الإيديولوجية، التاريخ، وحتى الانطباعات الذاتية (النفسية) قد شكلت دلالات سطحية وعميقة بطريقة مؤطرة وغير مؤطرة، عن طريق اللجوء إلى أزمنة التاريخ وشخصياته، وحديث الذات التي تبوح بما عانتها من اضطرابات وتكتلات نفسية، وكذلك بالاعتماد على التحولات الإيديولوجية المصاحبة لمجريات أحداث واقعية عاشها المجتمع.

باعتبار المادة الاجتماعية الواقعية بؤرة النص الروائي العربي الممثل للهزيمة، الصدمة، الحرية، الفضيحة، والفكر الغيبي... نستطيع القول أن الرواية العربية والجزائرية خصوصا قد انفتحت على فضاءات شاسعة للتعبير عن الواقع الإنساني بكل أبعاده ودلالاته، وقد جاء بحثي موزعا على مدخل تناولت فيه تعريف مصطلح الإيديولوجيا الذي عرف تطورا كبيرا واختلافا متباينا عبر مختلف الفلسفات، نأى فيها عن المفهوم الذي وصفه مبدع المصطلح الأول، ليتخذ معاني التحقير والتهكم من قبل الطبقة السياسية الفرنسية أي موطن المصطلح الأول، ثم ينطلق في آفاق فلسفية متصارعة تجاذبتها تيارات عالمية كالماركسية التي رصد منظرها الأول "كارل ماركس الإيديولوجيا في خانة الوعي الزائف وصراع المصالح الطبقيّة، ومنه إلى

رصد المصطلح عند علماء الاجتماع ، والذين يقرون أن الإيديولوجيا تابعة للعامل الاجتماعي .

هذا بالنسبة للغرب ، أما عند العرب فتعتبر دخيلة ، وكذلك علاقة الأدب بالإيديولوجيا من خلال صلة الأفكار بالواقع وبالفن ، ومنه إلى علاقة الرواية بها بصفة عامة ، وعلاقة الرواية الجزائرية بها بصفة خاصة .

كما تناولت فصلين تطبيقيين حول روايتي "رمانة" و "عرس بغل" للروائي "الطاهر وطار".

الرواية الأولى: تدور حول شخصية فتاة فقيرة تدعى "رمانة" ، قذفها وضعها الطبقي المتردي إلى ممارسة البغاء بهدف تعليم أختيها ، وتأمين حياة أفضل لهما ؛ ويصور "الطاهر وطار" استغلال طبقة الأغنياء لرمانة التي استمرت في سلوكها المنحرف إلى أن التقت بالصدفة رجلا اشتراكيا ثوريا متخفيا في زي بدوي دعتة إلى دارها قبل أن تعرف حقيقته ، وأسكنته حجرتها ونادته هي وأختها خال ، وهو الذي علّمها القراءة والكتابة ، وأخبرها أنه يريد القضاء على مصدر الآلام في الجزائر ، ويرغب في تحقيق العدالة الاجتماعية ، وقد عملت "رمانة" بإيعاز منه مع الثوريين إلى أن اكتشف أمره فغادر منزلها ولم يعثر له على أثر بعدها ، فآل بها المصير إلى الزواج من « تاجر تافه »¹، اشتراها ووضعها في منزله كما يضع أي تحفة ، وهكذا اقتضاها الأمر أن تحيا باقي حياتها بلا قضية كما هي الجزائر.

الرواية الثانية : تدور في أحد المواعير حيث ترتئي كبيرة المومسات "عنايبة" جني المال بصورة سريعة عن طريق إقامة عرس صوري ، تدعو إليه رفيقاتها في الحانات الأخرى ، وزبائنهن من الأعيان ، وتحصل من خلاله

على هدايا قيمة من مال وسواه ، وقد أطلقت عليه اسم "عرس بغل" ، مما يدل على عمقه .

يصور الطاهر وطار في الرواية اصطدام الموروث الديني بالواقع القائم من خلال شخصية "الحاج كيان" ، وهو طالب في جامع الزيتونة ، والذي يأتي إلى الماخور ، داعيا المومسات إلى العودة إلى الإسلام ، إلا أنه يتوصل في النهاية إلى استنتاج مفاده أن الفساد لا يحتاج إلى مواعظ ، بل إلى عدالة اجتماعية تزيل أسبابه ، الأمر الذي حوله من واعظ ديني إلى داعٍ إلى الاشتراكية .

يرمز "الطاهر وطار" بالماخور إلى الجرائر التي عمها الفساد ، كما يرمز بعرس بغل إلى العقم الذي لا يثمر عن أي نتائج تطلعية للشعب ، فالحل من أجل الخلاص لا يتأتى في نظر "الحاج كيان" - الذي نرى أنه لسان الكاتب - بالتخطيط من أجل جني المال كما تعتقد "عنايبة" ، بل ينتج عن تطبيق نظام اشتراكي عادل.

وتظهر صحة نظرية "الحاج كيان" على إثر فشل العرس في آخر الرواية إذ تظهر نية "خاتم الهزي" في سرقة مال "عنايبة" ، مما يؤكد استغلال الطبقة المقهورة لبعضها البعض ، فكل فرد منها يرغب في تحسين وضعه على حساب الآخر، وتبقى بالتالي فكرة تطبيق النظام الاشتراكي الحل الوحيد لإزالة الفساد .

Rusemé:

Elle a vécu roman algérien dans les années septante et au-delà étape importante a pris la qualité de l'écriture scores confirmée par une prise de soi et collectivement, cela a été basée sur la connaissance conflit politique et social, économique et culturel ... qui est taché par les écrits de vision lorsque Tahir a volé Uasina Gimp et autres, n'a pas formation était la lutte idéologique enceinte des préoccupations intellectuelles algériennes et à travers le roman air simpliste discuter et analyste, mais convoqué écriture nouvelle voie de contournement du déplacement habituel de l'ordinaire de représenter votre prise de conscience de nouveaux événements M k h a d h a k e t a b h t e n d a n c e .

Analraah direction consciente de l'idéologie, de l'histoire et même l'auto Alantavat (psychologique) a formé une sémantique superficielles et profondes ont augmenté de manière encadrée et non encadrée, quand en recourant à des moments de l'histoire et de ses personnages et de l'auto moderne qui révèlent tous Maanth des perturbations et des conglomerats psychologie, et aussi en fonction des changement dans l'idéologie dans le cours des événement communauté réaliste vécu.

Et l'article accent représentant Battabar sociale de réalisme de la victoire de romancier de la défaite arabe et de choc, de la liberté et de scandale et métaphysique pensée....nous pouvons dire que le roman arabe algérien et surtout a ouvert de vastes

espaces pour l'expression de la réalité humaine dans toutes ses dimensions et de connotations.

Vint une recherche distribuée à l'entrée Tnault la définition du terme idéologie qui connaissait le grand développement et différent mixte entre les différentes philosophies, nous parlons du concept, qui a décrit le premier mandat iconique, de prendre les significations de mépris et de ridicule par la classe politique française tout citoyen, puis débute dans les perspectives Tgazptha conflit philosophique flux mondiaux tels que le marxisme, qui surveillent leur première apparition (Karl Marx) idéologie dans la boîte fausse conscience et de conflit de la classe d'intérêt et de suivre de près les sens du terme lorsque les sociologues qui Akarona que l'idéologie appartenant au travailleur social de cette pellnsph l'Ouest, soit quand les arabes sont considérés comme exotiques, ainsi que la relation littérature balla adiologio d'à travers la liaison des idées et de l'art et de la réalité de celui-ci à une nouvelle relation pallaidiolwega en générale, et une idéologie nouvelle relation algérien en particulier.

Et deux Ttabiqian était d'environ deux roman «Rommana et le mulet mariage » à Taher romancier et volé.

Premier roman : tourne autour de la figure d'une pauvre fille qui s'appelle "grenade" jeté placé classe détérioration de s'engager dans la prostitution, dans le but de sœurs

enseignantes et d'assurer une vie meilleure pour eux. Et dépeint "taher et a volé" couche exploiter riche pour la grenade, qui a continué à mener des déviants être remplies homme coïncidence aysraki révolutionnaire infiltré en costume badawi, a invité à sa maison avant que vous sachiez la vérité, et askinth sa chambre et ndth est sa sœur "libre", qui a enseigné la lecture et l'écriture, et lui a dit qu'il veut éliminer la source de la douleur en Algérie, veut réaliser la justice sociale, a travaillé "grenade" le poussant avec les révolutionnaires à découvrir son commandement, il a quitté sa maison a été trouvé pour avoir un effet au-delà, Fall Out vouée au mariage "antiquités marchands", a acheté et le mit dans sa maison comme sacrifier chef-d'œuvre, et donc nécessitait de vivre sans la question car ils sont l'Algérie, soit le deuxième roman: qui gravitent dans l'un des bordels ou prévoit plus grandes prostituées "nabih" faire de l'argent rapidement en établissant un mariage mon, laissez lui ses compagnons dans les bars d'autres et leurs clients du sénat, et vous obtenez à travers les dons d'argent et d'autre qu'il appelle le nom de 'mule de mariage", suggérant, dépeint Aloutar dans le roman collision hérité religieuse fondée sur la réalité, à travers le personnage de l'entité haj, un étudiant à la mosquée d'olive et qui vient fermentée appelant almissat à un retour à l'islam . mais il a finalement abouti à la conclusion que la corruption n'a pas

besoin de mez ba pour éliminer les causes de justice sociale, qui se déplace à partir d'un adieu a religieuse au socialisme .

Symbolise pur et a volé vers l'Algérie pub que sa corruption oncle comme symbolisé mule de mariage à l'infertilité, qui ne donne pas de résultats pour chercher les gens.

Solution pour le salut ne vient pas dans la vue Haj entité qui y voient à la planification son écrivain jana pour l'argent, que pensez Nabih, mais Waitangi sur le système achtrakp foire d'application.

Afficher validité du Haj entité théorie suite à une plantation échoué dans le dernier roman, car il semble avoir l'intention anneau Alhazeeh dans le vol d'argent Annabah, ce qui confirme l'utilisation de la classe opprimée à l'autre, chaque membre qui souhaite améliorer ses frais ai de l'autre, et le reste dans l'idée suivante de l'application de la solution tyhraki du système seulement pour éliminer la corruption .

جَمْعُ الدِّينِ